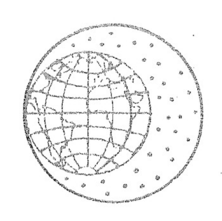
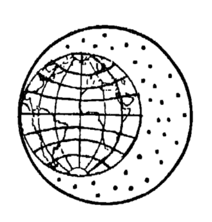


العقيدة وبناء الإنسان

الدكتور
عبد الفتاح عبد الله بركة
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية (سابقا)

دار التراث الإسلامي
للتحرير والنشر

٨ شارع محمد صدقى - باب اللوق



العقيدة
وبناء الإنسان

الدكتور
عبد الفتاح عبد الله بركة
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية (سابقا)

دار التراث الإسلامي
للتحرير والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

بســم اللــه الرحمــن الرحيــم

الحمد لله ، خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، فسواه ونفخ فيه من روحه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، الذى أتم الله به بناء النبوة والرسالة ، كما أتم بالنبوة والرسالة بناء الأنسانية .

وفى هذه الكلمات التى نقرؤها فى الفصول التاليه سوف نجد الأرتباط الكامل بين بناء الأنســان ، وبين النبوات والرســالات الألهية .

ذلك أن بناء الإنسان ليس فيما يظهر من بنيته البدنية ، وقوته الجسمية ، فإنه قد ينافسه فى ذلك كثير من الحيوان الذين يبرذونه ويتفوقون عليه فى ذلك . ولكن بناء الإنسان هو فى تثقيف عقله ، وتقويم قلبه ، وإرهاف وجدانه. بحيث يتمكن من أدراك نفسه ، ومعرفة مكانهامن هذا الوجود . فأذا توصل إلى ذلك وعمل على تحقيق ما عرفه عن يقين فأنه يكون قد أقام فى نفسه صرح الإنسان .

هذا الإدراك وهذه المعرفة سوف تؤديان به إلى معرفة وثيقة بأصل وجوده ، ومصدر حياته ، وإلى العلاقة الضرورية القائمه التى تصله به صلة مباشرة ، وهذه الصلة المباشرة بينه وبين خالقه إذا أستقامت فى نفسه فإنها سوف ترسم له الطريق السوى والصراط المستقيم الذى يؤديه فى النهاية إلى أن يكون إنسانا فى أحسن تقويم كما خلقه الله تعالى .

لأنه بمعرفته لله ، وبمعرفته بالصلة المباشرة التى تربطه به وبالمسئولية التى حملها الله له ، يستطيع أن يتحرر فكراوشعورا عقلا ووجدانا ، قولا وعملاإرادة وعزما ، لكن يسلك السلوك الذى يليق به كانسان ، على منهج الخالق العظيم الذى خلقه وسواه ونفخ من روحه .

وسوف يجد أنه فى أشد الحاجة ، لكى يصل إلى هذا المستوى الراقى ، الذى هيأه الله له ، لمن يرشـــده ويدله ويهديه إلى طريق الله ، إلى من يقيم له فكره ، وينير له قلبه ، ويشرح له صدره ويهذب له قوله وفعله ، وفقا للمنهج الإلهى الصحيح وهذا من فضل الله على الإنسان بأن أرسل رسله الكرام وأختارهم من ذرو الإنسانية لكى يبلغوا رسالات ربهم ، مبشرين ومنذرين ، ولكى يقودوا البشرية على نهجه القويم ، حتى أرسل سيدنا محمداصلى الله عليه وسلم وخاتم النبيين بالمنهج الشـامل الكامل للناس أجمعين .

إن هذا المهنج الإلهى الذى يبنى الإنسان الفرد ، يبنى – فى الوقت نفسه – مجتمع الإنسان ، بما يشتمل عليه هذا المنهج من تكامل وتناسق ، وبحيث لا يكون هناك فاصل بين الإنسان الفرد فى ذاته ، وبين الإنسان المشارك فى مجتمعه ، كما أنه لا يسمح بوجود فاصل بين الإنسان بدنا أو نفسا ، فالتكامل والتناسق بين الفرد والمجتمع ، عملية تلقائية ، تترتب بطريقة واقعية على عملية بناء الإنسان فى نفسه ، وفق المنهج الذى يستقيم عليه الإنسان فى وحدة تامة لا تفصل بين الجسم والروح .

ولذلك سنجد أن تحرير العقل ، يفتح باب العلم وتحرير الوجدان يقيم روابط الأخوة الأنسانية ، وتحرير الإرادة ، يعين على الأبتكار والأبداع وأســتقرار العقيدة ، يملأ النفس أمنا وسكينــة ، فتفيض منها رحمة عامة فى الوقت الذى تزدان فيه بحلية التواضع والحياة .

وقد نشرت هذه الفصول بترتيبها فى مجلة المجاهد العزاء التى تصدرها الشئون الدنية بأدراة الشئون المعنوية للقوات المسلحة .

ومع شكرى الجزيل لعناية هذه المجلة والقائمين عليها بإخلاص – خاصته العميد محمد عبد الصمد حمادة – الذى كان رئيس تحريرها – فقدآثرت أن أجمع هذه الفصول فى هذا الكتاب ، بأعتبار وحدة الموضوع ، حتى ينتظم عقدها فى سلك ، وتجمع فكر القارىء حين يتابع هذه الفصول معا .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د . عبد الفتاح عبد الله بركة

العقيدة وبناء الإنسان
الإنسان وقيمة الحياة

حياة الإنسان هى أثمن ما يملكه ، بل هى فى الحقيقة كل ما يمكله ، وهو يستطيع عن طريق أستثمارها بصورة حسنة أن يحقق معنى إنسانيته التى أكرمه الله بها ، وميزه بها على سائر مخلوقاته فى هذا الكون ، وذلك عن طريق أستعمال كل المواهب والطاقات التى لديه ، والتى وهبها الله له ، لكى يستعملها أستعمالا صحيحا يتناسب مع المستوى الرفيع الذى خلق له .

إن الإنسان يشعر أنه متميز عن بقية المخلوقات التى تشاركه الحياة فى هذه المعمورة ، وهو شعور صحيح ، يعتمد على عوامل فطرية ، ومواهب خلقية أختص بها دون غيره من هذه المخلوقات ، لكن تميزه عنها لا يتحقق إلا بأســتعمال هذه المواهب ، فإذا أهمل أستعمالها فإنه يكون قد تنازل طواعية عن هذا المركز المرموق والمكان السامى الذى تؤهله له قدراته ومواهبه .

فقيمة حياة الإنسان تظهر عند أستعماله لهذه المواهب ، فاذا أهمل أستعمالها فقد قيمته كأنسان لأن حياته تصبح بغير قيمة .

هذه المواهب التى تميزه تدفعه دفعا إلى تفكير فى أمور كثيرة ، وذلك عن طريق ملاحظته لنفسه ولحياته ، ولأطواره ، فيفكر فى بدايته ومصدره ، ويفكر فى نهايته وغايته ، ويفكر فيما بين ذلك ،

وفى معنى ذلك كله ، ولديه من المواهب والمدارك ما يدفعه دفعا إلى هذا التفكير ، وهو قد يمر على هذه التساؤلات مر الكرام ، لكنها تظل كامنه فى أعماقه لا تزول ، وقد تؤرقه فلا يستطيع أن يهدأ أو يستقر قبل أن يعرف لها حلا .

ولقد شغلت هذه المسائل الناس فى القديم ، وما تزال تشغلهم فى الحديث ، ولن تزال تشغلهم على توالى الأجيال والقرون .

وبالوصول إلى حل صحيح يتهيأ للإنسان أن يعرف لحياته معنى صحيحا ، فإذا معرفته هذا الحل الصحيح ، فأنه ولا شك يكون قد أخطأ فى فهم حياته ومعناها .

وقد يظن كثير من الناس أنه لا معنى للحياة الا ما يجده فيها من واقع عملي ، وأنه لا ينبغى أن يبحث عن شىء آخر وراء هذه الظواهر العملية التى يمارسها فى حياته ، وأنه ما دام يتمتع بما يتمتع به من طيبات هذه الحياة الدنيا فقد ملك كل تصبو إليه نفسه ، ويهفو إليه فؤاده . فهل هذا صحيح ؟!

حينما يأتى الإنسان إلى هذه الحياة يجد السواعد ممتده عادة لأحضانه ، والقلوب متلهفة لأستقباله ، ويجد العناية والرعاية من كل من يستطيع تقديم هذه العناية والرعاية ، ويكبر قليلا فيعتقد مع سذاجته الأولية أنه صاحب حق فى كل ما يقدم إليه ، وهولذلك يتحكم فيمن حوله ، ويرى أن عليه أن يطلب ، وأن على الآخرين أن يجيبوا مطالبه أنه يرى السكن والمأوى مهيئا ، والأثاث ووسائل الراحة معدة، والطعام يقدم كلما أحتاج إليه ، فيخيل إليه أنه يملك كل ما حوله ومن حوله .

ومازال ينمو وينمو ، ويكتشف حقائق الأشياء شيئا فشيئا ، وأذا به يكتشف أنه وحيد لا يملك شيئا ، ولا يتحكم فى شىء .

أنه رغم وجوده فى مجتمع كبير يضج من حوله ويضج ، فإنه وحيد يعيش وحده ، لا تربطه بهذا المجتمع الكبير الا عدة علاقات ، وأنه وإن كان يجد الأستجابة لما يطلبه ، فإنه يأتى عليه يوم يتبين فيه أن هذه الأستجابة ليست ضرورية ، وأنها قد لا تتحقق فى كثير من الأحيان ، وأن ما يكون طوع يديه فى لحظة أو ساعةيخرج عن هذا الطوع بعد هذه اللحظة وهذه الساعة ، وأن ما كان يظنه تحت حكمه وسيطرته هو فى الحقيقة حاكم ومسيطر عليه ، فهو لا يشعر أنه يخدم الآخرين كما يخدمونه ، ويقع تحت سلطان غيره كما يخضع البعض لسلطانه ، فليس هناك ممن حوله من يستطيع أن يدعى له عليه سلطانامطلقا ، أو تحكما تاما .

الأمر إذن ليس داخلا فى حكم فرد واحد من البشر !

فإذا ذهب لينظر فيما هو خارج عن هذه العلاقات ، كالأمور المادية التى تملك ملك اليمين ، فماأوضح ما فيها من غرور المال والعقار ، الأرض والتجارة الألات والمصانع ، والسيارات الفارهة وأدوات الزينة والرفاهية ، فقديظن أن ذلك من أملاكه التى لا شك فيها ، لكن هذا الملك هو ملك التخويل والتصرف المؤقت ، أما ملكك الحقيقى فهو ما أمكنك أن تتحكم فيه بصورة مطلقة ، فلا يخرج من حكم ، وليس كذلك ما تملك من مال ، لأنك لكى تشترى لابد لك أن تبيع ، ولكى تأخذ لابد من أن تعطى ، وأنت تملك اليوم ما لم تكن تملك بالأمس ، فأين كان ؟ أنه لم يكن معك لأنه لم يكن ملكالك ،

وأنت تفتقد اليوم ما كنت تتمتع به الأمس فأين ذهب ؟ أنه قد رحل عنك ، لأنه لم يعد ملكا لك ، فأين ملكيتك لما تظن أنه فى ملكك بينما هو فى تحول مستمر ، الملك الحقيقى إذن ليس لواحد من البشر .

قد تظن أنك تملك نفسك !! وهذا أيضا وهم كبير ، لأنك لا تسطيع أن تتحكم إلا فى حيز محدود من شئون نفسك ، يماثل ذلك الحيز المحدود الذى تتحكم فيه من شئون مالك ، فتوهمت أنك تملك نفسك،كما توهمت من قبل أنك تملك مالك ، وأنت فى الحقيقة لا تملك هذا ولاذاك .

والإنسان قد ييأس من نفسه ومن ماله ، ومن علاقته بالآخرين ، لكنه لا يكاد ييأس من أبنائه ومن زوجه ، أليس هو القائم بشئونهم، المضحى بجهده وراحته من أجلهم ، أليس هو سر سعادة الزوج ، وسبب وجود الأولاد ؟ فهو إذن يملك شيئا واحدا ! يملك الأبناء والزوج .

وهذا أيضا باطل وزور ، أنه كان يوما بدونهما ، وغدا يشيعونه كأن لم يكن بينهما ، لا يملك الأب أبناءه ، ولا الأم أبناءها ، ولا تملك الزوج زوجها ، ولا الزوج زوجه ، أنما هى أمور وأسباب وعلاقات ، مجرد علاقات ، يجرى فيها الله سبحانه وتعالى شئون العباد .

الإنسان فى هذه الدنيا – أذا – وحيد ، بكل ما فى معنى كلمة الوحدة من وجود ، خلقه الله وحده ، ويعيده إليه وحده ، وهو بقيمه فى هذه الحياة – أيضا – وحده ، وأن أحاطه ببعض العلاقات والروابط التى يظهر من خلالها سلوكه وتصرفاته ، ويتحقق بها معنى حياته فى هذه لدنيا .

وإذا كانت هذه العلاقات المختلفة تغرنا كما تغر الآخرين ، وتزيف علينا معنى حياتنـا ، كما تزيف على الآخرين معنى حياتهم ، فسوف تنتهى عنا الحياة ، وعندئذ تزول الحجب ، ونرى أننا خسرنا أثمن ماوهبنا الله سبحانه وتعالى ، وهو الحياة ، لأننا لم نعرف معناها ، ولا مصدرها ، ولا غايتها ، ولم نعرف فى أى شىء ننفقها .

لو أردنا أن نضرب لذلك مثلا بالمسائل المادية ، فيمكن أن نضربه برجل يملك رأسمال ، يريد أن يستثمره فلابد أن يستثمره فيما يعود عليه بالربح ، وإلا كان من الحمقى .

لو وجدنا مثل هذا الرجل الذى يريد أن يستثمررأسماله يذهب فيبعثره ذات اليمين وذات الشمال ، لأنه لا يدرك الوجه الصحيح لاستثمار المال ، ولم يتعلم كيف يستثمر ماله ، فإنه عندما يحين وقت الحصاد ويذهب ليبحث عما عاد عليه من ربح فلا يجد ، ثم يبحث عن رأسماله فلا يجد ، عندئذ يشعر بفداحة الخسارة .

لو أنه لم يربح وسلم له رأس ماله هو كما لكان خاسرا ،فما بالكم إذا كان قد فرط فى رأسماله أيضا ، فلم يجد منه شيئا فى يده !؟

السبب فى ذلك أنه لم يتعلم أصول التجارة ، أو أصول أستثمار المال ، ولم يكن له من الحكمة والفطنة ما يساعده – أذ لم يتعلم – على أدراك ما ينبغى أن ينصرف به فى هذا المال ، فخسر كل شىء ، خسر ربحه ، وخسر جهده ، وخسر ماله .

وحياة الإنسان هى رأسمال الإنسان ، وهى الشىء الوحيد الذى يملكه الإنسان ، ينفق منه أو يستثمر منه شيئا بعد شىء ،

فالمال لا يملكه ، والدور والعقار لا يملكها ،والحكم والجاه والسلطان والنفوذ لا يملكها ، والزوج والبنون لا يملكها ، لأن كل فرد يهتم بنفسه قبل أن يهتم بالآخرين ، أنها مجرد علاقات تتغير وتتحول بأستمرار ، وتترتب عليها حقوق وواجبات ، ومع ذلك فأنت لا تملك لأحد أن يفعل ما عليه من واجب ولا تملك إلزامه بأداء ما عليه من حقوق .

وأنت إذن لا تملك شيئا إلا نفسك ، ولا تكلف إلا نفسك .

وقد وضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نحتفظ برأسمالنا ونربح فوقه أصنافا مضاعفة ، حياتنا في هذه الدنيا هي رأسمالنا ، وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نستثمر هذا المال لكي نربح به بعد ذلك أضعافا مضاعفة من حياة سعيدة باقيه لا تزول ولا تفنى . وبدون أن يعرف الإنسان قيمة حياته هذه ويتمكن من أستثمارها في مجالها الصحيح ، لا يكون الإنسان إنسانا ، ولو ملك المال والجاه ، والولد ،لأن هذه الأملاك – كما بينا – أملاك مؤقتة لا تبقى ولا تستثمر ، وسوف يأتي الوقت الذي تظهر فيه هذه الحقيقة جليه وأضحة ، وعندها يتجرد الأنسان من كل هذه العلاقات ، حتى الأهل من زوج وولد ، يتجرد من ذلك ، ويذهب إلى ربه فردا ، كما خلقه فردا ، وكما يعيش في هذه الدنيا فردا ، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾

يقال لهم عندئذ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾

وكل العلاقات التى يرتبط بها ، ويجب عليه أن يرعاها ، وهى الميدان الذى نستثمر فيه رأسمالنا من الحياة والوقت ، مسائل ليس لها بقاء ولا دوام ، وسوف يتجرد الأنسان منها ، ويردها إلى صاحبها ، فقد ولد لا يملك منا شيئا ، ثم أعطاه الله أياها فى هذه الدنيا ، لأنها مجال عمله وسعيه فحسب ، وعندما ينتهى الوقت المحددلها يعود الله سبحانه وتعالى مجردا من كل شىء إلا من الربح الذى ربحه ، أو الخسران الذى خسره .

حياة الأنسان - أذن - ولو فرضنا أنه لم يعرف حقيقتها - تكون ضياعا لا جدوى منها ولا فائدة فيها ، بل تتسرب من يديه سنة بسنه وشهرا بشهر ، ويوما بيوم ، وساعة بساعة ، إلى الأجل المحدود .

وإذا كان الأمر كذلك وأنتهى الزجل ، ولم يعرف الإنسان ، أو لم يدرك ولم يفهم سر حياته لا مصدرها ولا غايتها ، ولا الوسائل التى أوتيها لكى يصل إلى غايتها ، إذا لم يعرف شيئا من ذلك ثم أنتهى الأجل ، فأى فارق بينه وبين غيره من مخلوقات الله التى لم يهبها العقل والقلب ، ولم يعطها السمع والبصر والفؤاد !؟ ما هو الفرق بين هذا الذى أنتهى ولم يعرف حقيقة نفسه ولا قيمتها ، ولا معنى حياته وكرامتها مصدرا وغاية ووسيلة ، وبين غيره من المخلوقات التى لم يؤتها الله شيئا من هذه المواهب !؟ لا فرق !

بل يوجد فارق من الناحية السلبية ، لا من الناحية الإيجابيه ، لأنه قد صار أكثر منها ضلالا ، وأكثر منها خسرا .

أنها لا تدرك ، ولا تتمكن من المعرفة والإدراك ، أما هو فقد آتاه الله العقل وميزه وعندما ينكشف له الأمر ، ويعلم أنه لم يكن يستعمل عقله ومواهبه يتحسر ، ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ الملك / ٩ : ١٠

أما البهائم ، فأنها لا تستطيع أن تتحسر أو تلوم نفسها ، لأنها لم تخسر شيئا ، إنها لم تكلَّف فى حياتها كتكليف الإنسان ، ولم يعطها الله ما أعطى الإنسان من أستعدادات التكليف ، وهى مسخره فيما تفعل ، بأمر الله وإرادته ، ليس لها فوق ذلك شىء ، فماذا خسرت ؟!

أما الأنسان الذى يفرط فى حياته ، فالفرق بينه وبين هذه البهائم ، أنه قد خسر كرامة الحياة التى أعدها الله له ، وهيأه لها ، وأمده بأسبابها ووسائلها ، فأهملها وتركها . ولذلك نجد هذه الآيةالكريمة تصنع هذه المقارنة بين مثل هذا الأسان وهذه البهائم . فنقول : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

الأعراف / ١٧٩ .

العقيدة وبناء الأنسان
معرفة الخالق

عندما يتحقق الأنسان من نفسه أن معنى حياته ليس فى مقدار ما يملك فى هذه الحياة الدنيا من متاع ومال ، ولا من جاه وسلطان ، ولا من ولد وعشيرة ، لأن كل ذلك يتحول ويتغير ويزول، وأنه فى النهاية يفارقه ويذره ، وحيدا مع نفسه ، حتى الأهل والولد ، لأن كلامنهم له حياته الخاصة به ، وكلا منهم مشغول بنفسه وبحياته الخاصة ، وعندما يتحقق الأنسان من ذلك ، ويتيقن أنه مع كثرة علاقاته المادية والأجتماعية يعيش وحيدا وينتهى وحيدا ، فأنه لابد أن يراجع موقفه من نفسه ، وموقفه من هذه العلاقات ، فيعطى لهذه العلاقات قيمتها الحقيقية كشىء عارض فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يبالغ فى هذه القيمة ليجعلها كل شىء فى حياته ، أو أهم شىء فى حياته ولكنه سوف ينظر إليها بأعتبارها وسائل وأدوات يحقق ذاته من خلال التعامل معها، والسعى فيها ، وهكذا يتم لكل فرد وتحقيق ذاته من خلال تعامله مع الآخرين ، هذا التعامل الذى يتخذ صورا كثيرة متعددة ، فتتغير مظاهره وأشكاله ، وتتطور أوضاعه وأجواله ، فلا يثبت على حال ، ولا يستقر على نظام مما يؤكد دائما وأبدا أنفراد كل إنسان بنفسه وبحياته .

لكن ما معنى أن يحقق الإنسان ذاته ؟ إم كان المقصود أن يثبت وجوده ، فلا شك أنه موجود ، ما دام حيا ، ومثل هذا الوجوه ، لا يحتاج إلى تحقيق وأثبات ، ولكن مثل هذا الوجود ثابت له ، كما هو ثابت لغيره من سائر الموجودات ، ومن سائر المخلوقات الحية ، كما ذكرنا من قبل ، فبليس هذا الوجود هو الذى يحتاج الأنسان إلى أثباته وتحقيقه ، ولكنه - بالقطع - يجب أن يحقق ذاته ، بمعنى أنه يريدان أن يبرز ما يتميزه به عن سائر هذه المخلوقات باعتباره إنسانا يتميز عنها بالأنسانيه ، بل هو يريد أن يبرز ما يتميز به كفرد بين جنسه من بنى الأنسان .

لكى يبرز الأنسان ما يميزه به كأنسان ، وما يتميز به فرد من أفراد الأنسان لابد أن يستعمل مواهبه ،ملكاته الخاص الأستعمال الذى يؤدى إلى تحقيق غايات عليا وأهداف مثلى :

ومنها تبدأ مسألة الفرد تأخذ بعدها الحقيقى فى نسق الوجود ، ويبدأ ظهور التفاوت الشخصى بين فرد وفرد فى محيط الأنسان نفسه ليسألها عن هدفها وعن غايتها التى يريد أن يستعمل في تحقيقها ما يملكه من مواهب وملكات .

ولا شك أن تكون هناك غايات وأهداف إنسانية عامة لها إطارها الواسع الذى يشمل داخل حدوده مناشط الإنسانية جمعاء ، كما تكون هناك فى داخل هذا الإطار العام غايات وأهداف متعددة بيخير منها الفرد بحسب ما أوتى وأمتلك من قدرات وملكات .

فباترى ماذا يمكن للإنسان أن يختارلنفسه من غايات وأهداف !؟ إنه من الممكن أن يتجاهل الإنسان فكرة الهدف

والغاية ، بحيث يعيش – كما يظهر بادى الرأى – بغير هدف ، وبذلك يعفى نفسه من مشقة البحث والأجتهاد والسعى ، ولكن ماذا تكون النتيجة !؟

إن الحياة لا تتركه لكى يعيش مهملا ، حتى ولو أراد هو أن يهمل نفسه ، فإنه الحياه من حوله لا تهمله ، ولكنها تظل تدفعه دفعا لكى يعيش حياته بكاملها ، فلو فعل ذلك وتنازل عن وضع هدف وأفترض غاية ، فإن سوف يجد نفسه مضطرا إلى السعى وبذل الجهد فى غير موضوع وبدون نتيجة ، لأن السعى والسير بغير هدف محدد ، ومعناه أن يتساوى التقدم والتأخر ، وأن يتساوى من يأخذ ذات اليمين بمن يأخذ ذات اليسار ، والمرء عندئذ لا يعرف له أتجاها معينا يسلكه ، ومن الممكن أن يسير فى أتجاه معين ، ثم يكر عليه بأتجاه معاكس تماما لأنه ليس له هدف محدد يسير تجاهه ويسعى إليه ، فهو يسعى بطريقة عشوائية ، لا نظام فيها ولا ترتيب ، ولا يعرف لها بداية ونهاية .

لابدإذن لكى يحقق المرء ذاته أن يحدد هدفه وغايته بطريقة واضحة ، وعندئذيستطيع أن يوجه كل سعيه وجهده نحو بلوغ هذه الغاية وهذا الهدف وبقدر نجاحه فى قطع المسافة ودرجة تحقيقة لهذه الغاية تبرز مواهبة وتظهر شخصيته وتحقيق له ذاته الإنسانية .

وقد يبدو لبعض الناس أن سالة تحقيق هدف مسألة سهلة ، فهدف التلميذ النجاح ، وهدف التاجر الربح ، وهدف الزارع نجاح المحصول .. وهكذا ، وليس الهدف القريب هو المقصود ، لأنه مامن هدف من هذه الأهداف القريبة إلا وراء هدف ليس هدفا نهائيا

ولكنه وسيلة لهدف آخر، وتأهليه لمعترك الحياة وليس هدفا نهائيا ، ولكنه وسيله لهدف آخر أبعد هو أن يحقق لنفسه حياة طيبة .. وهكذا بالنسبه لربح التاجر ومحصول الزارع وغير ذلك من أهداف وأعراض .

والهدف المقصود لابد أن يكون هدفا عاما نهائيا ، تخدمه كل هذه الأهداف القريبة بحيث يؤدى كل منها إلى ما بعده حتى يتحقق ذلك الهدف البعيد النهائى وهو الغاية التى لا يكون بعدها غاية .

إن تحديد هذه الغاية يستلزم من الأنسان أن يحدد موقعه من هذا الوجود ، وإن يحدد صلته به على نحو واضح ، وذلك يستلزم أن يعرف كيف كانت بدايته حتى يظهر فى ضوئها كيف ينبغى أن تكون نهايته .

وكثيراً ما يغفل الأنسان عن هذه المسألة ، ويحاول أنم يحدد أهدافه وغاياته بغير أن يحدد أصوله وبداياته ،ومن هنا تكون الغايات التى يحددها غايات قاصرة غير نهائيه ، لأنها لم ترتكز على أسس واضحة ، ولم تستقر على معلومات صحيحة ، ولهذا تنتهى حياته ولم يحقق شيئا يذكر من حيث إنسانيته وذاته ، وإن حقق كثيرا فى دائرة هذه الحياة الدنيا .

فهل هذه الحياة الدنيا هى نهايته التى لا وجود له بعدها حتى تنحصر أهدافه فى نطاق هذه الحياة الدنيا ؟ أم أن الأنسان قد وجد لكى يحيا حياة أعلى وأسمى من هذه الحياة تهيئه لها هذه المواهب والملكات التى ليست لعزه من سائر هذه المخلوقات الدنيا !!

لهذا كان لابد أن يعود الإنسان ، لأصل وجوده ، ليعرف ما هو المقصود من وجوده ، وكيف كانت بدايته التى ترشحه لهذه الغاية التى وجد من أجلها ، ومن أجل تحقيقها ، وما لم يعرف الأنسان مصدره وأصله فسيظل مدى عامه بما ينبغى عليه أن يسعى له ويحققه قاصرا محدودا لا يساعده على تحقيق ذاته على المستوى اللائق به .

وعندما يراجع الأنسان نفسه فى هذه المسألة سيجد أن وجوده فى واقع الحياة كان مسبوقا بزمن لم يكن موجودا فيه بذاته ، مثله فى ذلك مثل أبيه وجده وأجداداه من قبله ، ومثله فى ذلك مثل أقرانه ورفاقه هم وآبائهم وأجدادهم من قبلهم ، وأن الأنسانية بجملتها كانت - من ثم - مسبوقه بزمن لم تكن موجودة فيه ، أو بصفة أدق مسبوقة بحالة من العدم لم يكن لها فيه وجود ، ومثل ذلك ينطبق على هذا الكون المنظور الذى نعيش فيه من باب أولى لأن الأنسان هو أرقى الكائنات فى هذا الكون المنظور ، وما لايستطيع الأنسان أن يظفر به لا يستطيع كائن آخر أدنى منه أن يظفر به أو أن يحققه .

ومن هنا يجد الأنسان نفسه مضطرا إلى البحث عن أصله ومصدره الذى كان سببا فى وجوده وظهوره بعد هذا العدم ، لأنه ليس من المعقول أن يكون وجوده بعد العدم مستندا إلى كائن آخر حصل على وجوده من بعد عدم مثله ، لأن الذى كان معدوما ويحتاج فى خلقه وإيجاده إلى من يخلقه ويوجده ، لا يستطيع أن يهب لغيره شـــيئا من الوجـود أو الخلق ، فلابد إذن أن الذى خلق

الجميع هو الذى خلق الإنسان وسواه ومنحه منحة الوجود التى ينعم بها فى هذه الدنيا فترة محددة لا يستطيع تجاوزها ولا يملك إطالتها أو زيادتها .

والإنسان مضطر إلى هذا البحث لمعرفة خالقه وموجده وواهب الحياة له ليحقق بذلك عدةج أمور ، أولها : حاجة نفسية لا يخلو منها إنسان سوى ، وهو أن يعلم أن له أصلا ومصدرا يستند إليه ويعتمد عليه ، وأنه ليس مخلوقا تائها لا أصل له ، أن عدم أطمئنان الإنسان إلى معرفة أصله ومصدر وجوده يجعله يشعر بالضياع ، وذلك للشعور العميق بأن ما لا يستقر على قاعدة صحيحة صلبه تذروه الرياح أينما هبت دون أيّ قرار ، فيشعر بأنه تائه لا وجهه له . وثانيها : أن يعرف صاحب هذه النعمة التى يتمتع بها من الوجود والحياة وما ينبع ذلك من سائر النعم التى لا تعد ولا تحصى ، فيطمئن قلبه لعنايته ورعايته من جانب ، ويمتلىء قلبه من جانب آخر بعاطفة العرفان والأمتنان ، وتلك هى الفطرة الإنسانية السوية التى تعرف لصاحب كل ذى فضل فضله .

وثالثها : أن يتعرف إلى خالقه جل شأنه ليعرف منه سر نشأته ، وغاية خلقته ، وسواء فطرته ، وهذا أمر ضرورى ، لأنه بناء على هذه المعرفة يمكن للأنسان أن يعرف تلك الغاية التى خلقه الله لتحقيقها ، والوسيلة والمنهج الذى رسمه الله له لكى يحقق الغاية من خلقه ، فأنه إذا عرفها وعمل على تحقيقها يكون قد نفذ الغاية التى خلق من أجلها ، وبهذا يتحقق وجوده وتتحقق ذاته على أكمل صورة ، وإذا قصر فى جانب من هذه الجوانب فإنه يكون بذلك قد قصر فى تحقيق الصورة المطلوبة منه .

ورابعا : أن يجد فى توثيق صلته بخالقه عن طريق معرفته والتماس ما يرضيه ما يرتفع بقدره وقيمته من حيث هو مخلوق ، فكلما أقترب من ربه وكلما توثقت صلته به ، أزداد رفعه وقدرا ، ومعرفة الله الذى خلقه وسواه هى التى تمكنه من أن يبذل جهده فى التعلق به والتقرب إليه .

لهذه الأسباب ولأسباب أخرى غيرها يجد الإنسان نفسه مدفوعا بصورة أضطرارية لكى يتعرف إلى خالقه جل وعلا ، وما لم يبذل جهده فى سبيل ذلك ، أو بذله ولكنه لم يستطيع أن يتوصل إليه ، فأنه يظل فى حالة عميقة من القلق والأضطراب لأن لديه أمورا لأبد له يجيب عنها وأمورا لابد له أن يحققها ، ولكنه لا يستطيع أن يطمئن إلى شىء يفعله فى هذا المجال مالم يكن قائما على أساس سليم ، أنه لكى يحقق ذاته ، لابد أن يعرف الهدف والغاية التى تؤهله لتحقيقها مواهبة وملكاته لكى يحدد الهدف والغاية لابد أن يعرف لماذا خلق بعدأن لم يكن ، ولكى يعرف ذلك لابد له أن يعرف خالقه الذى خلقه ، أذ هو وحده الذى نشأته ودبر وجوده ودبر حياته وهيأه لاداء عمل معين لتحقيق غاية معينه وبالتالى فهو وحده الذى يمكن أن يدلنا عليها ويقودنا إليها ويرسم لنا منهج السعى سبيلها والجهاد من أجلها وبدونها لا يكون لوجودنا معنى ولا لحياتنا قيمة . ولهذا لم يكن بد أمام كل فرد يريد أن يحقق ذاته من أن يعرف خالقه حق معرفته ويتعرف إليه بالقرب منه والتماس رضاه .

العقيدة وبناء الإنسان

عقيدة التوحيد

إن فطرة الإنسان وشعوره بأنه فى حاجة دائمة إلى هذا الخالق الذى خلقه وأوجده بعد عدم ، وأبقى عليه وجوده فى هذه الدنيا بطائفة من النعم التى لا يمكن حصرها أو إحصاؤها ، أن الشعور بهذه الحاجة الدائمة إلى الخالق عندما يستيقظ فى نفس الإنسان ، ويأخذه مأخذ الجد ، ولا يحاول أن يتناساه أو يتغافل عنه ، فأنه يدفعه دفعا إلى التعرف عليه ، والتودد إليه ، ومحاولة معرفة محابه للقيام بها ، وساخطه للأبتعاد عنها .

على أن هذه الفطرة نفسها المنبعثة بصورة تلقائية تجعل فى يقين الإنسان إيمانا عميقا بأنه يدين بوجوده وحياته إلى مصدر واحد ، لا يمكن أن يتعدد ، لأن الإنسان السوى الذى يملك فى نفسه عناصرالتعقل والأدراك والشعور والوجدان العاطفى وقوة الحركة والسعى ، والتفكير والتدبير ، مترابطة ومتماسكة فى نسق واحد متكامل، لا يتعارض ولا يتناقص ، فأذا عرض له عند فرد من الأفراد ما يؤدى إلى شىءمن التعارض أو التناقص ،وصف ذلك بأنه حالة مرضية ، ونفسية أو عقلية أو بدنية ، هذا النسق الموحد فى الأنسان السوى من هذه العناصر المتكاملة ، تجعل من المستحيل فى أدراكه ووجدانه أن ينظرإلى نفسه على أساس أنه

متعدد المصدر ، وأن هناك من يملك بدنه وإن هناك من يملك روحه ، وآخر يهبه العقل ، وآخر يمنحه العاطفة ، وأن ذلك لا يستقيم فى واجدان إنسان ولا فى فطرته .

فواحدنية الخالق لا تجد فى فطرة الإنسان أى تردد أو شك ، وعلى العكس من ذلك نجدها تظفر بالتوافق معها ، والأنسجام مع معطياتها ومقتضياتها .

وفى إطار الوجود العام بين أفراد البشر ، وأنواع الوجود المختلفة من حيوان ونبات وجماد ، ومن وجوه الكون القريبة والبعيدة ، والمنظور وغير المنظور ، من كواكب ونجوم وأفلاك ومجرات وكائنات علوية وسفلية ، نجد أن هذا التناسق والتكامل يفر من وحدة الخالق جل وعلا .

ورغم أن وحدة الخالق فطرة يجدها الإنسان من نفسه ولا يستطيع أن يفسر وجوده ولا وجود الكائنات حوله إلا على هذا الأساس ، فإن الإنسانيه ، وقعت فى حمأة الشرك فى كثير من الفترات ، وكثير من البقاع ، وكانوا كثيرا ما يحاولون التوفيق بين ما تمليه فطرتهم من وحدة الخالق جل شأنه ، وما تمليه أو هامهم وضلالاتهم من وجود آلهه أخرى بأن ينسبوا الخلق لهذا الخالق وحده ، ثم ينسبون لهذه الآلهه المفتراه ما هو دون ذلك من وظائف مدعاة ، أهون هذه الوظائف أن يكونوا أشفعاء لهم عند الله .

والواقع يتفق وينسجم مع الفطرة فى يقينها العميق بواحدانية الخالق سبحانه وتعالى ، ذلك لأنه بتتبع التاريخ لا نجد من يزعم أنه خلق شيئا أو أنه يخلق شيئا ،، حتى تلك الآلهه التى أختلقتها

أوهام البشرية ، لم نجد منها من يزعم أو يدعى ذلك ، فأنها إما مخلوقات لا تحس ولا تعقل كأنواع الأحجار والأشجار والأبقار ، وهذه لا يعقل منها أن تتقدم بهذا الزعم ، وإما ملوك وأباطرة متألهون طغيانا وجبروتا ، ومع ذلك فهم لا يستطيعون الزعم بأنهم خلقوا شيئا من الأرض أو كان لهم شرك فى السموات ، لأن الأرض كانت هى الأرض قبل أن يولودا ، وظلت هى الأرض بعد أن هلكوا ، أما دعوى الألوهية لبعض الرسل أو الملائكة ، فهذه لم يزعمها أحد منهم ، ولكنها من زعم هؤلاء الذى أتخدوهم آلهه من دون الله .

فجميع الألوهيات - غير ألوهية الخالق وحده - زائفة ، بحكم الواقع، لأنها لم يزعمها لنفسه أحد سَوِىّ ، وبحكم الفطرة ، لأنها - حتى عند المشركيه - لا تنسب حقيقة الخلق والأيجاد الالإله واحد ، وأن نسيت وظائف آخرى إلى غيره ، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

وهذا الإفك والأفتراء ، وأتباع الأوهام والأهواء ، بادعائهم لله شركاء ، أفسد حياة هؤلاء المشركين ، ووجههم توجهات بتعدبهم عن معرفة الحقيقة وعن أتباع الحق ، وقد عرفنا أن العمل وبذل الجهد والسعى إن بدأ أمناء على أساس فاسد ، فإنه لأبدأن يؤدى إلى نتائج فاسدة ، وأن يوصل إلى غايات زائفة ، وأن الحياة - وهى أثمن ما يملكه الإنسان - إذا أنفقها الإنسان في هذا الزيف والبهتان فإن يبوء فى النهاية بأعظم الخسران ، لأنه أنفق هذه الحياة فيما لا يغنى عنه شيئا من دون الله ، حيث لم يستطع أن يحدد لنفسه أصل الأصيل الذى يمكن أن يعتمد عليه ، وأن يلجأ

إليه ، حتى تستقر نفسه فى أوقات الأمن ، ويثبت فؤاده عند الفزع ، ويطمئن قلبه عند متشابهات الأمور ، وحيث أضلته أوهامه ، فتقدم بالعرفان والأمتنان إلى هؤلاء الذين لا يملكون له ضراو لا نفعا ، ولا يملكون موتا ولاحياة ولا نشورا ، وغفل عن عرفان الفضل لصاحبه ، فذهبت أعماله هباء نشورا ، وضل سعيه في الحياة الدنيا . وحيث راغم فطرته التى تدعوه إلى التعرف إلى خالقه ، ليعرف منه ، ويتلقى عنه معنى وجوده ، وأسرار حياته ، والغاية التى وجد من أجلها ومن أجل تحقيقها ، والوسائل التى ينبغى عليه أتباعها والتى تؤدى به إلى تحقيق هذه الغاية المحددة ، والمنهج الذى رسمه له خالقه لتسلم له حياته ، وتسلم له غايته ، وتسلم له وسائله .

وحيث هوى بقدر نفسه وكرامته إلى مستوى المعبودات الدنيا الزائفة التى تعبد لها نفسه من دون الله .

إن الإنسان يستطيع أن يدرك أصل وجوده بفطرته النقية ، أو بفكرته المستقيمة أو بضرورة الحياة الواقعية التى يحياها بين سائر العناصر المختلفه من هذه المجودات .

ولكنه كذلك عرضه للوقوع فى أسر الهوى والأوهام كما فعلت وكما تفعل الإنسانية فى كثير من البقاع والأزمان .

وكان من تمام رحمة الله بعبادة أنه لم يتركهم لأوهامهم وضلالاتهم ، وإنما أرسل إليهم بين الفترة والفترة ، ولقوم بعد قوم من يكشف لهم حقيقتهم ، ويذكرهم بفطرتهم ، لعلهم يعودون إلى معرفة ربهم وخالقهم ، ويطرحون من فوق أعناقهم نير العبودية لتلك المعبودات الوهمية الزائفة .

لقد جاءت رسل الله جميعا لتؤكد للناس هذه الحقيقة التى تتفق مع الفطرة من كل وجه ، ولكى تزيل عن هذه الفطرة ما يغشاها من أوهام ، وما يشوبها من شبهات وما يطمسها من إفك وضلالات ،

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

ولقد بذلت رسل الله جميعا أعظم الجهد فى سبيل ترسيخ هذه القاعدة الإيمانية فى قلوب الذين يريدون معرفة الحق وأتباعه ، ويريدون أن يظفروا بتحقيق معنى حياتهم ، وأثبات حقيقة ذواتهم .

والواقع أن عقيدة التوحيد هى الأســاس الذى لابد منه لمن أراد أن يبنى حياته على أســــاس سليم ، ويسلك فيها على صراط مستقيم .

ذلك لأن عقيدة الواحدانية تجمع مشاعر الإنسان ومداركه وجميع ملكاته العقلية والنفسيه ، والروحية والبدنية على الآله الواحد ، فلا بنوزع بين الأوهام ، ولا يتمزق بين الخيالات ، ولا تجتذ به أنواع المغريات بين أطراف اليمين واليســار ، فيسير على غير هدى ، ويسعى إلى غيرغاية ، ويفقد كل قيمته فى النهاية .

فإذا وجدنا رسل الله جميعا ، ودينه الذى أتوابه لهداية الناس ، ويجمهم على هذه العقيدة ، ويجعلها محور التعاليم ، ومبدأ كل المبادئ ، وأساس كل المناهج التى يقدمونها للناس حتى يطيقوها فى سلوكهم وتصرفاتهم ، وتطورات حياتهم ، وكان ذلك مما يتفق مع الفطرة السليمة فإن ذلك يدفعنا دفعا إلى الإيمان بهم ،

والألتزام بالمناهج التى يقدمونها لنا ، ولقد سلكت هذه العقيدة طريقها الينا عن رسل الله حتى وصلت إلى الرسالة الخاتمة التى جملها إلينا سيدنا محمد رسول الله وخاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم .

وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة التوحيد في صورتها النهائية التى كانت عليها منذ خلق الله آدم نقية من الشوائب والتحريفات التى ألصقتها البشرية برسالات الرسل السابقين ، وقدمها الينا وأضحة صريحة ، لاتقبل الألتباس ، ولا تحتمل الشبه ، ولا تسمح لمرور الزمان بأن يدخل عليها شيئا من التحريف أو التعبير لأن الله أودعها فى كتابه الكريم ، وتكفل بحفظه بقوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

ومن هنا وجدنا عقيدة التوحيد التى آتت بها رسل الله تتعرض لكثير من التشويه والتحريف على يد أتباعها كلما بعد العهد بينهم وبين رسلهم ، أما الرسالة الخاتمة ، فلم تتعرض لذلك لأن كتابها محفوظ لم يتعرض على مر القرون إلى تبديل حرف ولا تقديم ولا تأخير ، فبقيت عقيدة التوحيد النقية الصافية فى صورتها الدقيقة الواضحة محفوظة فيه بحيث يمكن القول بأنه لم يعد هناك دين يصح أن يسمى بدين التوحيد إلا بالأسلام الذى قدمه لنا خاتم الأنبياء والمرسلين ، عليهم الصلاة والسلام .

ولذلك نجد فى بقايا الأديان السابقة أنفصالا وأسعا بين عقيدة التوحيد ، وبين المناهج والتطبيقات العملية والسلوكيات الفردية والأجتماعية عند أتباعها ، أما فى الأسلام فأن عقيدة التوحيد تسرى فى كل تعاليمه ومباعثه ، وفى كل منهاجه وتوجيهاته

سريان الروح فى البدن الحى ، وسريان الماء فى النبات الريان ، وبحيث تصبغ المسلم بصبغتها الشاملة ، فتوجه فكره وأدركه ، وأسلوبه فى التفكير والأدراك ، وفى تقديره للأمور ، كما توجه مشاعره وعواطفه ، وكيفية أمتثاله لها ، أو سيطرته عليها ، وتوجه كذلك حركته ونشاطه والمجالات التى يسعى فيها بحركته ونشاطه ، والأهداف التى يرس اليها من وراء هذه الحركه وهذا النشاط .

أن هذه العقيدة تتحكم فى كل مكونات المرء المسلم بحيث تطبعه بطابع العبوديه الخالصة لله وحده ، فتجعله يستعلى على مظاهر الأستكبار والأستعلاء فلا يسمح لطاغية مهما طغا أن يسخره وأن يسخر واجدانه وحسه فى غيرما أباح الله ، ولا يسمح لعزيز مهما عز أن يخرجه عن طاعة الله إلى أتباع هواه ، ولا يرضى بأن يخلع على مخلوق مهما تكن منزلته ومكانته صفه ترفعه عن مستواه .

أنه بعقيدته ذلك يؤمن بآن الله وحده هو ملك ذاته ورقبته ، ومالك حياته وموته ومالك دنياه وآخرته ، ومالك الكائنات من حوله وأنه وحده الذى يصوغها ويدبرها بغير وزير ولا معين ، ولا ناصح ولابشير ، وأنه يحكم لا معقب لحكمه ، وأنه وحده الضار النافع ، المعطى المانع ، والذى يخفض ويرفع ، ويذل ويعز :

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

إن المؤمن بعقيدة التوحيد الذى أسلم لله وجهه ، تربطه بالله صله وطيده وعلاقه وثيقه ، فلا يكاد يفصل عن هذه العلاقه والصله مهما أشتغل بتصاريف هذه الحياة بل لعل هذه العلاقه وهذه الصله تصحبه فى مواجهته لتصاريف دنياه فتحدد له مساره وترسم له أسس علاقته بالناس ، وتضبط له قواعد سلوكه ومعاملاته ، وتزن فيه عواطفه ومشاعره ووجدانه تجاه الأفراد والجماعات ، وتجاه الأحداث والملابسات ، بحيث تبرز من خلال ذلك بناء أنشائى متكامل منطبع بطابع هذه العقيدة الفطرية القويمة ، عقيدة التوحيد .

العقيدة وبناء الأنسان

اليــــوم الآخر

لو أسترسلت فطرة الإنسان مع ما فطرت عليه من عقيدة التوحيد الخالص ، وسارت فى طريقها خالصة مخلصه لله وحده ، دون أن تصادف فى طريقها عقبات أو مغريات ، أو تجد من نفسها شهوات ونزعات ، أوتستمع من شيطانها إلى وساوس ونزعات ، لو صفت من كل ذلك لاستقام لها طريقها بغير منعرجات ولا منحنيات ، وبغير توقف ولا أبطاء ، ولقاربت فى طبيعتها طبيعة الملائكة الكرام ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ولكننا نعلم من عقيدة التوحيد أن الله سبحانه وتعالى قد أنشأنا خلقا آخر ، لأعمال أخرى ، فركب فى الإنسان الغرائز المختلفة ، والرغبات المتعددة ، وجعلة محتاجا إلى الطعام والشراب والملبس والمأوى ، وجعله محتاجا إلى غيره من البشر ، ويخدمهم يخدمونه ، ويتبادل معهم المنافع والمضار ، والعلاقات الخاصة والعامة ، وهيأ له هذه الدنيا بأرضها وسمائها ، ونجومها وكواكبها ، لتخدمه وتقدم له كل ما يحتاج إليه ولأستمرار بقائه ، إلى الأجل المضروب له ..

وترك الإنسان بهذه الفطرة المزودة بالرغبات والشهوات ، فى هذه الدنيا المليئة ، بالأمكانات والمغريات ، بغير ضوابط أو توجيهات يجعله ينطلق فيها حسبما تمليه أهواؤه ، وتوجهه نزواته ، وأن كان يؤمن بفطرته النقيه بالله ويربط مع الله رباطا روحيا

كريما . وهكذا يقع الإنسان بين طرفين ، طرف يرتقى به فى سلم العبودية لله تعالى إلى مستوى يقرب من مستوى الملائكة وطرف يهبط به فى سلم التمرد والأباق إلى مستوى يقرب من مستوى الشياطين .

والحقيقة أن هذه الدنيا هى المجال الذى يظهر منه الفرق بين أنسان وأنسان ، بين فرد وفرد ذلك لأن الدنيا ماثلة بين أيدينا نتناولها ونتداولها ، ونأخذ منها حسبما يتاح لنا أن نأخذ منها ، وما أشبه من يتبادل منها بمن يعب الخمر ، فلا يرتوى منها أبدا ، ويظل يطلب منها المزيد ، ولو كان لأبن آدم واد من مال لابتغى إليه ثابتا ولو كان له واديان لابتغى إليه ثالثا ، ولايملأ جوف أبن آدم الا التراب .. كما فى الحديث الشريف .

هذا الأنغماس فى الدنيا والتلبس بمغرياتها يشغل الأنسان عن وحى فطرته ، ويصرفه عما تقتضيه من التعلق بالله وأرتقائه بالنفس فى طريق الصلة الكريمة به تعالى ، ذلك لأن العلاقة بالله علاقة مجردة من المغريات المادية ، لا تدرك بالحس ، ولا تشبع حاجة دنيوية ، أنا مسألة غيبية ، لا يشعر الإنســان لها بثقل مادى ، ولا وجود حسى ، حتى يتجه أليها وينصرف نحوها ، ويشغل بها ، من هنا كان من الممكن أن تتغلب مغريات هذه الدنيا المادية والحسية على تلك الأنوار المعنوية المجردة البعيدة عن الحس فيقع الإنسان فى حماة هذه الشهوات التى تنحرف به عن طريق الصفاء والنقاء الذى يوصله إلى الله في أتجاه مستقيم .

ولو ترك الإنسان وهذا الشعور ، لأنطلق مع رغباته الدنيوية بدون تحفظ ، لأنه يستطيع أن ينال منها ما يريد .

أما جانب العلاقة بالله ، فأنه - وأنم أشبع الجانب الروحى والوجدانى - لا يكفى عند الكثيرين لكى يقاوموا به نزعات الشر ونوازع البغى والعدوان ، ودوافع الأثرة والانانية ، رغبة فى طيبات هذه الحياة الدنيا وشهواتها .

والواقع يقص علينا قصص هؤلاء الطغاة والبغاة الذين ملأوا الأرض بغيا وعدونا ، وعاثوا فيها ظلما وطغيانا ، ذلك لأنهم لم يكونوا ينتظرون لهم ما يتمتعون به الا ما تقدمه لهم هذه الدنيا من متاع ، كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يعاقبوا على ما يقترفونه في حــق الآخرين من جرائم وآثام ، وما يقــومون به من بغى وظلم وعـــدوان .

وهذا الشعور بأن هذه الدنيا هى بدأية الإنسان وهى نهايته ، وأنه لاشى ء بعدها ولا حياة خلفها ، لأبد أن بيعت على أحد أمرين ، أن يستعلى الجبارون ، ويستكبر الظالمون ويساعدوا الضعفاء ويستذلوا للأبرياء .

والثانى : أن يخضع المستضعفون ، ويستسلم الخائفون ، ويقعوا فى تأليه الطواغيت ، وتقديم الضحايا والقرابين لمختلف أنواع الهة المزيفين . وهل تستقيم الجياة الأنسانية بمثل هذا الشعور ، وهل تبقى للأنسان كرامته الفطرية التى يعرفها حين يعرف ربه الذى خلقه وسواه .

أن قاعدة الثواب والعقاب التي يعرفها الإنسان فى مستوى هذه الحياة الدنيا حين يدير .

بعض المشروعات الصغيرة ، كالمستشفيات والمدارس ،

والمصانع وغيرها ، قاعدة مضطردة لا يستقيم العمل ولا ينتظم بدونها ، فهناك فى كل ناحية أدارية لوائح تنظيم العمل ، وتنظيم الوجبات وترتيب على أداء الوجبات وعلى أتقان العمل ، وعلى وفرة الأنتاج فى أداء هذه الحوافز والمشجعات كنوع من الثواب على حسن الأداء ، وقد عرف من التجربة العملية أن أدارة الأعمال فى جميع هذه المشروعات لاتنتظم الا بهذه القاعدة ، قاعدة الثواب والعقاب ، وأنها لا يمكن أن تخلو من هذه اللوائح التى تنص فى موادها على نظام المثوبة ، ونظام العقوبة ، وأنها أذا خلت من ذلك أصبحت عرضة للفوضى وسوء النظام ، وضاع الأداء وفقد الأنتاج أو أنعدم

وأذا كان ذلك مما أدركته البشرية بفطرتها وعرفته بتجربتها فى حدود تلك المشروعات الصغيرة فى نطاق القرية أو المدينة ، فأن ذلك مما يؤكدأن هذا النظام مطرد لا يمكن أن يتوقف أو يتخلف على مستوى الأنسانية ككل .

لكن لوائح المثوبة والعقوبة فى هذه المشروعات توقعها الأدارات المشرفة عليهخا ضمن نظامها المحدود بحدود الزمان والمكان فى هذه الدنيا أما فى نطاق الأنسانية ككل ، وحياة كل أنسان فى هذه الدنيا ، فأن حدود الزمان والمكان لا تكفى ولا تتسع لمثل هذا النظام ، وحياة الأنسان لا تستقيم ولا تنتظم الا بناء عليه .

لهذا أرسل الله سبحانة وتعالى رسله الكرام ليبينوا للناس مع مبادئء التوحيد الأولى قواعد العمل ومناهج السلوك وأساليب التعامل ، حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يعتدى قوى على

ضعيف ، ولا يستذل فقير لغنى ، ولا يطغى حاكم على رعيته ويتظالم الناس فيما بينهم ، رغبة فى أعراض هذه الحياة الدنيا من مال ومتاع وزينة وجاه وملك وسلطان ، ووضع لهم أسباب التواصل والحب والمودة ، ومد لهم فى عوامل الرحمة والتعاون والأحسان وجعل ذلك كله من الوسائل التى ترتفع بكرامته وتكتمل بعزته وتصله بربه وخالقه .

والناس على أختلاف أتجاهاتهم وأوطانهم ، لو تركوا مع فطرتهم لأعترفوا بمنهج الله لأنه لا يتعارض مع نقاء الفطرة ، ولا ينتقص لهم حقا ولا يهضم لهم رغبة ولا يحوجهم فى حياتهم ، ويكلفهم مالا يطيقون ،

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »

« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »

« يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ »

الا أن كثير من الناس تتغلب فيهم نوازع الشر ، ودوافع الأثرة والأنانية ، ويريدون أن يستأثروا وأن يستمتعوا بأسباب الترف والرفاهية ولو على حساب الآخرين الذين يقعون فريسة لبغضهم وعدوانهم ، ويتم ذلك على مستوى الزفراد ، ويتم ذلك على مستوى الجماعات ، بل وعلى مستوى الشعوب والأمم .

فأذا خلت الحياة من قاعدة الثواب والعقاب ، لم يجد المحسن دافعا لاحسانه ، وحين يريد أن يتبع المنهج الألهى عدلا وأنصافا ، ورحمة وأحسانا ، ولم يجد المسيء رداعاً لأساءته حين يتبع المنهج الشيطانى ظلما وأجحافا وبغيا وعدوانا ، وعند ذلك تتغير الحياة لتصبح مصدر نقمة وتعاسة ، يشقى فيها الضعفاء بالذل والحرمان، ويشقى فيها الجبارون بالأحتراب المقلق ، والطمع المزعج ، والخوف المؤرق .

وليس من المقبول أساسا المشروعات المحدودة بحدود الزمان والمكان ، ثم لا يدرك أن تدار على هذه القاعدة مستمرة تتحكم فى الحياة البشرية بجموعها بعيدة عن قيود الزمان المحدودة ، حيث تتعامل مع الإنسان منذ كان آدم وإلى أن ينتهى الزمان ويتبدل المكان

إن الله سبحانه وتعالى قد وضح لنا أن الإنسان لم يخلق عبثا ، وأنه لم يترك سدى وأنه لابد له من يوم يرجع فيه إلى الله لينال المحسن مثوبة أحسانه ، ولينال المسىء عقوبة إساءته ، يقول تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ المؤمنون / ١١٥ ، ويقول جل شأنه

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

القيامة / ٣٦ – ٣٩ .

وأذا كان الأنسان قد أدرك هذه القاعدة فى حدوده الضيقة بفطرته وتجربته ، فلم يستنكر أن يتم ذلك بصورة عامة ومطردة بتدبير الله تعالى وعلمه وحكمته ، وأذا كانت الأعمال لا تستقيم ولاتنظم فى تلك المشروعات المحدودة القصيرة إلاّ على أساس من هذه القاعدة فكيف يتصور أن يستقيم حياة البشرية بصورة عامة فى نطاق من أطلاق الزمان وأطلاق المكان بغير هذه القاعدة ؟

يتصور أن حياته حياة البشر سوف تنتهى وتزول فلا يجد كل أنسان جزاء ما قدم من خير أو ما قدم من شر ، ولا يجد الظالم القصاص من ظلمه ، ولا يجد المظلوم التعويض عن ظلمه ويتصور

أن بغى وطغى فى هذه الحياة فقد فاز ونجا بما فاز به من متع وطيبات دون حسيب ولا رقيب ، وأن أغتصب وظلم فقد حرم وخسر هذه الحياة دون أمل فى أسداء حق أو دفع ظلم ، أن الفطرة الأنسانية تأبى ذلك وترفضه ، والتجربة العملية الضيقة فى حدود البشرية تتكره وتنبذه ، والحكمة الآلهية أعلى وأجل من أن تخالف هذه الفطرة البديهية، أو تراغم التطبيق العلمى ، لهذا بين الله سبحانة وتعالى أن كل أنسان سوف يلقى جزاء ما قدم فى يوم آخر ، يأتى بعد هذه الحياة ، حيث يبعث الناس جميعا ويحشرون إلى رب العالمين ، فيحاسب الناس على ماكسبوا ، وعندئذ يعلم البغاة مصير بغيهم ، ويعلم الصابرون عاقبة صبرهم ،الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

كما بين أن الحساب والجزاء عندئذ سوف يكون بمنتهى الدقة بحيث لا يسقط من حسابها ولا من جزائها مثقال ذرة الذرة ،

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

الزلزلة / ٦ – ٨ .

وقد قال لقمان لأبنه وهو يعظه ،

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ لقمان /١٦

وعندئذ يفرح الذين أحسنوا ويتحسر الذين أساءوا ويتعجبون لدقة الحساب ، وأنه لم يترك منهم أحد، ولم يغادر لهم صغيرة ولاكبيرة،

وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ الكهف / ٤٨ – ٤٩.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا اليومالآخر تطبيقا لهذه القاعدة قاعدة الجزاء حتى تستقيم الأمور ويقوم العدل ، ولاييأس مظلوم من حقه ، ولا يعتمد ظالم على قوته ويقول تعالى ،

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ يونس / ٤ : ويقول

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ أبراهيم / ٤٨ – ٥١

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ النجم / ٣١ .

العقيدة وبناء الإنسان
تحرير العقل

عندما تستقر فى نفس الإنسان عقيدة التوحيد فيؤمن باله واحد ، هو وحده الذى خلق هذا الكون ، وهو وحده الذى يمسكه ويهيمن عليه ويملك أمره وتدبيره ، فعليه أن يؤمن مع ذلك بأنه تربطه بهذه الألوهية علاقة العبودية ، وأنه لا يستطيع أن يعتقد مجرد أعتقاد بوجود أله خالق ، ثم يمضى فى طريقه كأن الزمر لا يعينه أو كان لا شأن له به ، كما يفعل كثير من الملحدين الذين يزعمون أنهم يؤمنون ، فإذا سألتهم عن مدى إيمانهم ، زعموا لك أنهم يؤمنون – بغير شك – فى أن لهذا العالم آلها واحد خلقه ، فإذا سألتهم عن هذا الإيمان فى حياتهم ما نتيجته فى نفوسهم ؟ وما الألتزام الذى فرضه عليهم هذا الإيمان فى حياتهم وسلوكهم ؟ وما العلاقة التى أنشاها هذا الإيمان بينهم وبين خالقهم ؟ لم يكن لهم على ذلك جواب ، ويدأ الأمر بالنسبة لهم معضلة غير مفهومة كأن ليس لهم عقل يسير بهم أكثر من خطوة واحدة هى الأعتراف بوجود هذا الخالق العظيم ، فأذا تجاوز الأمر ذلك إلى ما يقتضيه هذا الأعتراف من حقوق وواجبات من تكاليف يلتزمونها أزاء الخالق جلا وعلا وأزاء ما خلق ، فأن عقلهم يتوقف عن العمل ، ويتبلد فلا يستطيع الحركة أو النشاط ..

وهناك طوائف أخرى تبدو فى هيئة العقلاء الذين يستعملون عقولهم ، ويسيرون على هدية فأذا اردت أن تختبر مدى تمسكهم بما يرتضيه العقل ويقتضيه التفكير وجدت أنهم – فى الحقيقة – يعطلون عقولهم ، ويسلمون قياد فكرهم لغيرهم، سواء كان هذا الغير سلطانا مستكبرا بغرض جبروته وسطانه ، أو كان الأباء والأجداد الذين يفرضون تقاليدهم وعاداتهم مع ما يضاف اليها مع توالى الزمن من أوهام البشرية ، وقد يكون هذا الغير مجردا وهو يتسلط على العقل ، بتأثير البيئة والمجموعة الجماهيرية التى تحيط به ، فيأخذ منها قضاياها بالقبول والتسليم بغير تمحيص ولا تفكير ليميز بين ما هو صحيح ، وما هو سقيم مردود . ونماذج كثيرة أن رأيتهم تعجبك أجسامهم وأن يقولوا تسمع فقليل من العقل ، والتفكير يظهر ما هم فيه من ضلال وما هم عليه من خبال .

ولكن عقيدة التوحيد أذا أستقرت فى نفس الأنسان فأنها لا تتركه مهمل العقل بليد التفكير ذلك لأنها قد وضعت فى نفسه أساسا يقيس عليه كل أموره فلا يستطيع أن يتقبل ما يناقضه أو يركن إلى ما يخالفه ، أو يطمئن إلى الصمت والسكون وأهمال الأمور من حوله . سواء وافقت هذا المقياس أو صادمته وخالفته ، لهذا نجد القرآن الكريم وهو الكتاب العزيز الذى يقرر عقيدة الوحدانية فى أنقى وأنصع وأجلى صورة ، يحث الأنسان على أستعمال عقله ، وعلى عدم أهماله ، وعلى الأستعمال الصحيح الذى يؤدى إلى نتائج صحيحة بريئة من الهوى والغرض

وتأثير الآخرين ، وتأثير التقاليد والعادات والمفاهيم الراسخة بغير علم ولا بينة ، ويضع أمام العقل الأنسانى قضايا أساسية وحيوية ويرشده إلى طريقه السير والتفكير فيها ليستثير هذا العقل للعمل والنشاط بحيوية وكفاءة حتى أذا نشط وتحرك بما فيه الكفاية كان دليل هداية ورشاد للأنسانية ، لكى تعرف طريقها الذى يوصلها إلى خيرها وإلى سعادتها ، ويحدد لها بدايتها ، وأهدافها وغايتها ، وألتها ووسيلتها .

وكان مما أمتن الله علينا به فى هذا المجال أن أنزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين ليكون ديوانا جامعا يرجع إليه من شاء الهدى ، ومن أراد أن يتفهم قضاياه الأساسية ، ويعمل فيها عقله وتفكيره ، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾

النحــــل/ ٨٩ ما كان حــديثا يفترى ، ولكن تصـــديق الذى بين يديه ، وتفصـيل كل شىء ، وهــــدى ورحــمة لقوم يؤمنـــون « يوسف /آخر آية ، وقال سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

يوسف / ٢ ، وقال سبحانة وتعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)﴾

الزخرف / ٣ وحيث كان حملة رسالته إلى العالمين هم العرب ، كان هذا الكتاب عربيا يحرك عقــولهم ، ويبعثها على الفهم والحركة ، ويطلب اليهم فى قوة أن يتركوا خمول عقولهم ليعقلوا مايعرضه عليهم هذا الكتاب من قضايا مرتبطة بعبادة التوحيد التى لا تستقم الحياة بدونها أو بدون ما يترتب على الإيمان بها من نظرة شاملة إلى الكون وإلى الحياة ، فيدركون ربوبيته والوهيته ،

وأنهم إليه راجعون حيث يحاسبون فى اليوم الآخر على ما كانوا يعملون .

ولقد ذهب القرآن فى مخاطبة العقل البشرى لتقرير هذا المبدأ الأساسى فى الواحدنية وأرتباطالعبودية البشرية بالربوبية والوحدانية وبالعودة إلى الله فى اليوم الآخر كل مذهب فوضع القضايا ووضح المسائل ، وبسط الآيات أمام العقل ، ثم أستحثه على البحث والتدبر والتفكر لكى يصل بنفسه ونشاطه إلى تلك النتائج المؤكدة الحتمية التى لا يصح تجاهلها ، أو أهمالها أو الأغضاء عنها ، فيقول مثلا فى سورة البقرة ،

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

آية ١٦٣ - ١٦٤ فهذه أمور مشاهدة تتكرر مشاهدتها ولا تنقطع ، ويكاد العقل لكثرة تكرارها ينصرف عنها وعن أستخراج النتائج الضرورية منها ، رالتى تؤدى - إلى معرفة الله تعالى وواحدنيته ، ولكن القرآن الكريم يعرضها على العقل ويستثيره للنظر فيها والتوصل عن طريق الأعتبار والأستنباط إلى تلك الحقيقة الكبيرة « ألهكم اله واحد لا اله إلا هو الرحمن الرحيم » وأذا لم يتحرك العقل من خلال تلك الأمورالمشاهدة المتكررة ، فكيف يمكن له أن ينشط من خلال القضايا العقلية المجردة

الغامضة التي قد يدركها البعض .

ويذكر القرآن الكريم كثيرا من هذا الآيات والعلامات ليحرك في عقل الأنسان هذه القضية الأساسية التي يترتب على تقريرها وأقرارها نظرة صحيحة إلى الحياة ، ونظام أنساني متكامل يفضي إلى سعادة الفرد وسعادة المجتمع في الدنيا وفي الآخرة فتراه مثلا يقول في سورة الرعد .

الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴿٢﴾ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿٣﴾ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿٤﴾

الآية ٢ – ٤

هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴿١٠﴾ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿١١﴾ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿١٢﴾ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴿١٣﴾ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿١٤﴾ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ﴿١٥﴾ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴿١٦﴾ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴿١٧﴾ آية ١٠ – ١٧ .

ثم يقول فيما بعد مقررا القضية الرئيسية ،

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

آية ٢٢ ، ويبين أن شعور الكبرياء فى النفس هو الذى يحول بين الإنسان وبين الأسترشاد بما يمليه عقله الحر عليه ، ومن هنا يضل الإنسان ، وينحرف عن ضوء العقل ونوره ، وبهذا يبطل عمل العقل ويميل إلي الكسل والخمول أو إلى الأنحراف والضلال وفق ما يمليه الهوى ، وما تأمر به العادات والتقاليد ، وما هكذا يليق بالإنسان ، لأن العاقبة فى النهاية سوف تعود على الأنسان ضلالا فى حياته ، وخسارة كبرى بعد مماته وعذابا مهينا فى أخرحياته ،

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

آية ٢٩ .

فهذا حض عظيم على أستعمال العقل ، وأحترامه وتوقيره ، ونزع مشاعر الكبرياء والتعظم الكاذبة فى حضرة العقل وما يتوصل إليه من نتائج ضرورية ، خاصة أذا كانت مستنبطة من علامات وآيات واضحة جلية ، وهل هنالك ما هو واضح وأجلى من هذه الأمور المشاهدة المحسوسة التى تتكرر فى الحس والمشاهدة بغير أنقطاع ..

أن أمور العقيدة لا تفرض على الإنسان من الخارج ، وما لم تستقر فى قلبه ووجدانه رضا وطواعية فأنها لا يمكن أن تترك أثرها فى النفس بحيث تنطبع على الأنســان فى منهج تفكيره ،أو

فى منهج تصرفاته وسلوكه ، أوْ فى نظرته إلى الكون وإلى الحياة ، وهذه ضرورة من ضرورات العقيدة لا تفارقها بحيث يخدع الإنسان نفسه ، لو ظن أنه يمكن عن طريق الأرهاب أو القوة أو الضغط أن تفرض العقيدة على فرد من البشر ، نعم .. قد يقر بلسانه تحت ضغط القوة والعنف ، ولكن الأقرار باللسان يظل بمعزل عن مقر الأعتقاد فى القلب الذى يستنير بنور العقل ولذلك نجد القرآن وهو كتاب العقيدة الأسلامية يقرر ذلك بقوله

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ

وسواء كان ذلك تقريرا عن واقع الدين وحقيقته وهو أنه لا يمكن فرضه بالأكراه أو كان ذلك تنبيها للمسلمين لمنهج الدعوة إلى الدين وأنه لا يصح أن يكون مفروضا بالأكراه ، فأن النتيجة التى تعرفها العقول هى أن الدين فى أساسه عقيدة يعرفها العقل ويؤمن بها القلب ،، ولذلك لأبد لمن أراد أن يدعوللأسلام أن يبدأ بتحرير العقول من أسر الأوهام وسجن الخرافات ، وقيود التقاليد والعادات التى بنيت على غير أساس ، ومالم يتحرر العقل ويأخذ مساره فى البحث والتقصى ليصل بنفسه إلى نور الحقيقة مجردا من الضغوط البيئية والأجتماعية والنفسية وغيرها ، فأنه لا يستطيع أن يطمئن إلى دينه وعقيدته لهذا عمل القرآن من أجل تحرير العقل ، وتخليصه مما يكبله من هذه الأمور ورفع عنه كل ضغط ، ووضح أمامه طريق البحث ومنهاجه ، وأثار رغبته بطرح المسائل والقضايا التاريخية أجتماعية وغيرها مثل قوله تعالى بعد أن ذكر ما حدث لبعض الأقوام الذين أهملوا عقولهم فلم يهتدوا إلى الحق

فهلكوا وتركوا آثارهم من بعدهم تحكى قصتهم ، وتروى عبرتهم قال ، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾

العنكبوت / ٣٥ . ويطلب منهم السير والضرب فى الأرض للنظر والفكرة ، لا لمجرد النزهة والمتعة ، مثل قوله تعالى

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ الروم /٩

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ الروم / ٢٨

ثم يعرض عليهم صورا من تناقضهم العقلى حتى يحرروا عقولهم من كل العوامل التى نقيدها إلى درجة توقفها فى مثل هذا التناقض ، من ذلك صورة الذى يبحث عن الخير للناس ويوجههم إليه ، فأذامسه الأمر أختلف المقياس وبدأ يبرر لنفسه الخطا والضلال بمختلف أنواع المبرارات ، فهذا تناقض لابد أن ينتبه اليه العقل ، وأن يخضع الأنسان فيه لحكم العقل ،

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾

البقرة / ٤٤ ،

وصورة المشركين ورسوله الله صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم ما أوحى إليه من آيات القرآن الكريم ، وهم يعلمون أنه ليس من أختراع الرسول ولا من وضعه صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يملك منه الا البلاغ والبيان ، ومع ذلك يطلبون منه تغييره أو تبديله وفى هذا ما يتناقض مع ما يعلمونه ، أو مع دعواه أنه من عند الله ، فلا يستقيم هذا الطلب على أى من الأحتمالين لهذا يعرض لهم بهذه الصورة مبينا أن معرفتهم السابقة به وبانه لم يكن ممن يكتب أو يقرأ أو يتعلم على يد البشر تدلهم أن ذلك لا يستقيم مع هذا الطلب ، فيقول ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يونس / ١٥ – ١٦ .

ثم يضرب فى العقبة الكبرى التى تكبل عقولهم وهى أنهم يتبعون أباءهم وما وجودهم عليه بغير عقل ولا تفكير ، ويبين لهم أن هذا لا يليق بذوى العقول فليس من الضرورى أن يكون ما راه الأباء صحيحا ، ولعل ما رأه الأباء يكون قد تغير وحرف وبدل مع كر السنين ومرور الزمان فلم يعد مقبولا عقلا ، وما عليهم لو أعملوا هم عقولهم مثل الأولين – فى زعمهم – فأن وصلوا إلى ما عرفه الأولون كان أعتقادهم وأتباعهم له عن هدى وبصيرة ، والا فعليهم أن يتبعوا الهدى ويفارقوا الضلال ، ويعرفوا الحق ، ويجتنبوا الباطل يقول تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ البقرة / ١٧٠ - ١٧١ .

ويقول فى سورة الزخرف وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ الزخرف / ٢٠ - ٢٤

وهكذا يعالج قضية تحرير العقل البشرى من أسار الوهم والخرافة والتقليد ، ومن أسار التبعية والدونيه للآخرين ، ويطلق لكل فرد عقله ليفكر به لنفسه ويشق طريقه فى معتقداته وسلوكه وتصرفاته بناء على ما يهديه إليه عقله الحر فى ضوء تلك العقيدة الراسخة فى نظرة الأنسان ونقائها . حتى يكون حرافى تفكيره ، حرا فى عقيدته ، حرا فى علاقاته وفى سلوكه .

العقيدة وبناء الأنسان
تحرير الوجدان

كثيرا ما يسلك الأنسان فى تفكيره مسالك عقلية منتظرة ، تتبع منهجا واضحا ، وأسلوبا مرتبا بحيث لو تجرد فى منطقة وفى ترتيب مسائلة من تدخل المؤثرات الخارجية المختلفة ، لأدت نتائج نيرة صحيحة ، بعيدة عن الأنحراف أو الأضطراب ، ولكن الأنسان ليس عقلا فقط ، بحيث تكون كل أفكاره ونتائج مسائلة مبنية على الحكم العقلى الخالص ، أو المنطق العقلى المجرد ، وأنما نجد الأنسان كما يتمتع بالموهبة العقلية ، يخضع لعوامل ومؤثرات نفسية أخرى ، فهناك ميوله ورغباته المختلفه ، والتى تختلف قوة وضعفا ، بحسب الطبيعة الفطرية فيه من جانب ، وبحسب التربية الخاصة من جانب أخر ، وبحسب الثقافة العامة والبيئة التى تحيط به من جانب ثالث .

وعندما يسترسل العقل فى قضية من القضايا ، أو مسائلة من المسائل ، فأنها لابد أن يكون لها صلة ما بجانب من جوانب ميوله ، وبناحية من نواحى رغباته ، سواء كانت هذه الميول حبا أو كراهية ، رغبة أو نفرة ، غضبا أو رضا أو غير ذلك من المشاعر المتقابلة فى نفس الأنسان ، وهى ذات درجات فى القوة والتأصل والتحكم فى النفس وعلى قدر قوتها وتحكمها تلقى بتأثيرها على

أسلوب التفكير العقلى ، فإن أتفق الفكر وما يتوصل اليه من نتائج مع هذه الميول والرغبات النفسية ، كان تفكيرا مقبولا ، وإن لم يتفق معها ، بل خالفها فى جانب من جوانبها ، فإن هذه الميول تلقى بظلالها على أسلوب التفكير ، وتزين العقل من الأعتبارات والتقديرات ما يجعل الأمر يلتبس عليه ، بحيث يضع من المقدمات المزيفة ما يساعد على الوصول إلى النتائج التى ترضى النفس وترضى ميولها ورغباتها ، وذلك على غرار قوله تعالى :

وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾

النور ٤٨ – ٤٩ ، ومن هنا كان لابد لتحرير العقل ، وتجريده عن تأثير الهوى والنزعات النفسية المنبعثة عن عوامل مختلفه تحول بين العقل وبين الرؤية الصافية ، والنظرة الصادقة ، والفكرة الصائبة .

هذه المشاعر الداخلية ، والميول النفسية ، نظرة أنسانية شأنها فى ذلك شأن جميع الأجهزة والألات التى أنعم الله بها على الأنسان ليستطيع بأستعمالها أن يصل إلى تحقيق أهدافه وغاياته ، فإذا أستعملت أستعمالا حرا نزيها أدت إلى تكوين وجدان حر كريم ، وإن أستعملت أستعمالا منحرفا مضطربا ، أدت إلى تكوين وجدان مشوش سقيم ، وإذا أستقام الوجدان ، أستقام العقل من ناحيته ، ولم يقع تحت مؤثرات نفسية غالبة . وأذا أنحرف الوجدان وطغى وخضع العقل لتأثيره ، فأنه لا يؤمن فى تفكيره ، ولا يوثق فى نتائجه .

والأنسان بطبيعته يميل إلى ما يعتقد فيه النفع ، وينفر من الأمور التى يراها مصدرا للضرر ، وذلك من فضل الله على الأنسان ، لأن تحصيل الأمور النافعة سواء من الناحيةالمادية أو من الناحية الأدبية والمعنوية تزيد من قدرة الأنسان وطاقته على أداء وظيفته فى هذه الحياة ، كما أن تجنب الأمور الضارة يرفع من طريقه العقبات والعراقيل ، لكى ينطلق إلى أداء هذه الوظيفة فى سهولة ويسر ، وليس فى ذلك ما يلام الأنسان عليه.

ولكن المشكلة فى هذه القضية ، وهى قضية واجدانية أصلا ، هى أن النفس تخدع هذا الوجدان، فتزين له الضار ، الذى يتفق مع رغباتها وشهواتها ، فى صورة النافع ، وتزين له النافع ، الذى يتعارض مع نزعاتها ونزواتها ، فى صورة الشىء الضار ، ويمتلىء الوجدان بهذه الصور المغلوطة ، ويوجه العقل والفكر فى ضوء هذه الميول لكى يصوغ أفكاره وقضاياه بما يتلاءم مع هذه الميول ، وكثيرا ما تتصور النفس أن النفع مرتبط بشىء معين ، قد يكون شخصا ، أو علاقة ، أو مظهرا من مظاهر الطبيعة كالشمس أو القمر أو الشجر أو الحجر ، كما تتصور الضرر كذلك ، فهناك خداع نفس من جانبين ، الجانب الأول : تخيل النفع فيما فيه الضرر ، وتخيل الضرر فيما فيه النفع ، والجانب الثانى : ربط الحصول على هذا النفع ، وتجنب هذا الضرر بأسباب غير صحيحة ، وفى هذا الخداع النفسى يقع الوجدان أسير الشهوة والهوى ، فلا يستبين حقيقة النافع من الضار ولا يستبين المصدر الحقيقى لنفعه وضره .

ولما كان من طبيعة الوجدان أن يميل بصاحبه إلى من يملك نفعه ويملك دفع الضر عنه ، فأنه بذلك يتجه بصاحبه بجميع عواطفه ومشاعره وفكره وعقله وجهة خادعة نحو هذه المنافع المزيفة ، والمصادر المتوهمة ، ومن أجل منفعة مزيفة يستذل نفسه لمصدر موهوم .

إن الجاه والسلطان والنفوذ أمور تتفق مع رغبات النفس وشهواتها ، وتحصليها فيما ترى النفس من الأمور النافعة التى تعين صاحبها على قضاء مصالح أسرته وأولاده ، وتحميه من تحكم الأخرين ، ومن تلقى ضغوطهم وتأثيرهم ، ومصدر هذا الجاه والسلطان قد يكون هو رئيسه الأعلى المباشر أو غير المباشر ، وهكذا تزين له النفس هذه الصورة فإذا إمتلأ بها الوجدن ، مال بصاحبة إلى التزلف إلى هذا الرئيس ، ومحاولة أسترضائه بما يتفق مع رغباته وأهوائه حتى يستحق عنده المكانه اللأزمة لهذا الجاه والسلطان ، وفى هذا - كما هو واضح - أستدلال النفس ، وإيقاعها فى العبودية العملية ، وإن لم يشعر صاحبها بذلك شعورا بينا ، لأنه يكون مستغرقا فى هذه الذلة والمهانة بحيث لا يكاد يشعر بها .

وإن المال والثروة من الأشياء التى ترغب فيها النفس رغبة عارمة ، وتحصيل المال فيما ترى النفس من الأمور المفيدة التى تعين صاحبها على تلبية أختياجاته ، وأحتياجات أسرته وأولاده الضرورية والترفيهية ، وتحميه من ذل الفقر والحاجة ، وأسباب تحصيل المال والثروة كثيرة ، مشــروعة وغير مشروعة ، فإذا زينت

النفس لصاحبها حب المال وجمعه وأقتنائه بزعم أنه يقضى به حاجاته ويحتمى به من من الفقر ، ثم أمتلأ وجدانه بهذه الصورة ، مال بصاحبه نحو جمع المال بكل وسيلة ، وتتدرج به نفسه من وسيلة إلى وسيلة حتى يتتهى فى النهاية إلى جمع المال بصرف النظر عن الوسيلة التى يعتمد عليها ، وهكذا يصبح وجدانه أسيراً لا يستطيع أن يميز تمييزا صحيحا بين ما هو نافع من المال ، وبين ما هو مشروع من وسائل جمعه وتحصيله . وهكذا أمور أخرى كثيرة تزينها النفس ويقع الوجدان أسيرا لها .

ولكى يتحرر الوجدان من هذا الأسر لابد أن يتبين حقيقة المنافع وحقيقة المضار فلا يخلط بينهما تحت تأثير الهوى والشهوات ، وأن يعتمد فى تحصيل النفع الحقيقى ودفع الضرة الحقيقة ، على من يملك النفع والضر فعلا ، فلا يتعبد نفسه لأمور قد تبدو فى ظاهرها نافعة أو ضارة ، فأذا حقق فيها ودقق النظر وجد أنها لا تملك هذا النفع والضرر حتى لنفسها ، ولهذا يكون التزلف لها والتقرب اليها باطلا لايؤدى إلى حق ، وعبثا لا جدوى من ورائه .

وعقيدة التوحيد تحرر الوجدان من هذا التزلف وهذا البهتان ، إنها توضح النافع والضار بصورة مجردة ، لا تبالى بالهوى ، ولا تهتم بالشهوات والرغبات ، وتوضح المصدر الحقيقى للمنافع والمضار ، فلا تفر الوجدان بمصادر زائفة ، ولا بأسباب غير صحيحة ، ثم توضح وسائل الحصول على النفع ووسائل دفع الضر ، بما يتفق مع كرامة النفس الأنسانية ، فلا يستعبدها الهوى ، ولا تستذلها الشهوة ولا تدفعهالما لا يتناسب معها أو مع مكانتها التى بوأها الله لها .

إن عقيدة التوحيد تربط هذه المنافع والمضار بالذى يملكها ويملك توجيهها وحده وهو الله سبحانه وتعالى ، وتبين أنه لا يملكها أحد سواه ، وإن بدأ فى ظاهر الأمر أنه يملك شيئا منها فإن الفحص يدل على أن هذا الملك ليس ملكا حقيقا ، بل هو ملك سببى ، بمعنى أن الله جعله سببا يسوق من ورائه الخير لمن قدر له الخير ، أو يسوق من ورائه غير ذلك لمن كتب له .

فهذه الأسباب لا تملك أن تسوق الخير لنفسها ، ما لم يكن قد قدر لها ، فما بالك بأن تسوقه إلى غيرها ، فالأعتماد على هذه الأسباب والأرتكان عليها واللجوء إليها ، وحاولة أسترضائها بالحق أو الباطل ، بما يليق أو بما لا يليق ، مما يوقع الوجدان الأنسانى فى عبودية ذليلة ، لشىء موهوم لا يملك على الحقيقة شيئا ، ومعرفة الله والأقرار بواحدنية ، بمعنى أنه وحده هو مالك الملك يتصرف فيه كيف يشاء ، ويسوق ما يريد عن طريق الأسباب التى سخرها لذلك ، ينجو بوجدان الأنسان من الوقوع فى أسر الأوهام ، ويحرره من السقوط فى وحدة العبودية لمن يستحق هذه العبودية ، يقول الله سبحانه وتعالى مقررا هذه الحقيقة بجلاء :

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ عمران / ٢٦ – ٢٧ .

وليست حقيقة النفع والضر هو مايبدو لنا فى ظاهر الأمر ، بل ما يرتبط بالعاقبة ، فقد يبدو الأمر خيرا نافعا فى ظاهره ، أو فى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه ليس كذلك فى حقتقه ، أو فى عاقبته فى الحياة الأخرى .

وممارسته قد يبدو فى ظاهره مؤديا إلى القتل أو الهلاك ، أو إلى ضياع الأسرة والأولاد ، لذلك يكرهه المسلم ويعتبره من المضار ، وعلى العكس من ذلك الخضوع والخنوع والأستسلام ، والله سبحانه يبين أن الحكم لا يصح أن يكون بحسب الظاهر ولا بحسب هوى النفس يقول تعالى :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

البقرة ٢١٦ .

فالحكم بالخيرية أو الشرية ، وبالنفع أو الضرر لا يصح أن يرتبط بهوى النفس وما تحبه أو تكرهه ، بل يرتبط بالقواعد التى تقررها عقيدة التوحيد بعيدا عن رضا النفس وسخطها وقبولها ورفضها ، عندئذ تستقيم الأمور ، ويتحرر الوجدان من سلطان الهوى الداخلى ، وسلطان الأسباب الخارجى ، ويتعلق فى ميله وأتجاهه بالله سبحانه وحده ، فيستقيم حكمه ويعتدل ميزانه ولا يميل مع هواه أينما مال ، ولا مع المؤثرات الخارجية محقه أو مبطلة ، حتى فى العلاقات الشخصية لا يصح أن يجعل الهوى من كراهة ومحبة أو غضب أو رضا تتحكم فى وجداننا بل لابد أن تحرره منها بالخضوع التام لقواعد الشريعة ، يقول تعالى عن بعض العلاقات الزوجية :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

النساء / ١٩ .

فالخير هنا فى أتباع القاعدة الشرعية والمعاشرةبالمعروف ، لا متابعة الهوى من كراهه ومحبة ، ويقول سبحانه وتعالى فى معاملة الأعداء ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ المائدة / ٨ .

فالقاعدة الشرعية هنا تتعارض تعارضا بينا مع رغبة النفس فى التشفى والأنتقام ، وأعتبارها ذلك نافعا دافعا للمضار ، حتى بالنسبة للوالدين والأهل والأقرباء ، لابد أن نحتكم إلى القاعدة الشرعية التى تمليها عقيدة التوحيد ، وأبتغاء مرضاة الله وحده دون نظر إلى أحد من خلقه ، يقول سبحانه وتعالى مع حثه الشديد على بر الوالدين وصلة الأرحام : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ النساء / ١٣٥ .

وبهذا يتحرر الوجدان لا من تأثير المؤثرات البعيدة والغريبة وحدها ، بل حتى من تأثير الميول الذاتيه الأنانية والأسرية ، وإذا

وجدت النفس صعوبة فى ذلك وحاولت أن تأسر الوجدان مرة أخرى من هذه الناحية عاد القرآن لينبه هذا الوجدان بأن هذه العلاقة الحميمة رغم قوتها ليس من الضرورى أن تكون مجلية للمنفعة أو دافعة للمضرة ، بل قد تكون فتنة وقد تكون جالبة للأذى والضرر ، سواء فى الدنيا أو فى الأخرة .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) الأنفال / ٢٨ ، ويقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٤) ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٥) التغابن / ١٤ – ١٥.

وعند فرض الفروض في المواريث ، قد تميل النفس إلى فلان أكثر من فلان وتحب أن تؤثره عن غيره بشىء زائدمن الميراث بما يخالف شرع الله ، معتقدة فى ذلك أعتقادا كاذبا لا أساس له فى ذلك النفع ، فيبين الله للأنسان أن ذلك مبنى على ظن ووهم ، وأن الحقيقة فى ذلك لا يعلمهاإلاالله ، وأنه لذلك ينبغى الأمتثال لما فرضه الله من هذه الأنصبة فى المواريث ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١) النساء / ١١ .

فالضغط الشعورى من قبل العلاقة الأسرية سواء تجاه الأباء أو تجاه الأبناء أو تجاه الزوج أو تجاه الأقربين لا يصبح أن يكون

له سلطان على الوجدان بحيث يخرجه عن صريح الحق والقواعد المجردة الشرعية ، بل ينبغى أن يتحررالوجدان من كل هذه القيود ، وينطلق مع القواعد التى تقررها عقيدة التوحيد مجردة من الهوى بعيدة عن الفرض ، نقية من الشهوة ففى ذلك جلب النفع الصحيح والتخلص الحقيقى من أسباب المضرة سواء فى هذه الدنيا ، أو فى الأخرة يقول سبحانه وتعالى : ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ المتحنة / ٣ .

ولقد خطأ المشركون من هذه الناحية فوقعوا فى الشرك المحض حيث نسوا النفع الحقيقى والضر الحقيقى لم لا يملك من ذلك شيئا ، وهى معبوداتهم التى عبدوها من دون الله ، وكل من يعتقد ذلك أو يتصرف تصرف من يعتقد ذلك فيتزلف لفلان من الناس أو يتعبد لشىء ، من الأشياء إبتغاء منفعة أو دفعا لمضرة فإنه يشرك بالله تعالى أو يقع من حيث لا يشعر فى نوع من أنواع الشرك الخفى خاصة إذا أرتكب فى سبيل ذلك ما يخالف أوامر الشرع الحنيف من رياء أو نفاق أو مداهنة أو رشوة أو ملق ، أو خداع أو تضليل أو طمس للحقائق ، أو غير ذلك من الوسائل التى أبتليت بها مجتمعاتنا فى أوقات ضعفها وتخلفها ، والله يحرر وجدان البشر أجمعين من نير هذا الطاغوت فيبين أنه لا يملك الضر والنفع ســواه ، وأن من يستذلون أنفســهم له من دون الله لا يملك لهم نفعـاً ولا ضرا ، فيأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعـالى :

الأنعام / ٧١ ، ويقول جل شأنه :

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

الحج / ١١ - ١٣ ، ويقول :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

الرعد ١٦ ، ويقول : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

العقيدة وبناء الأنسان
الأمن والأستقرار النفسى

كثيرا ما يقع - فى أخضاء تمسه هو شخصيا أو تمس الأخرين ممن يحيطون به ، وقد تمس المجتمع بصورة عامة ، ومع ذلك فقليل من الناس هم الذين يواجهون أنفسهم بهذه الأخطاء ، ولا يجدون غضاضة فى الأعتراف بها سواء أمام أنفسهم ، أو أمام الأخرين الذين مستهم هذه الأخطاء ، وهم حين يفعلون ذلك ، يفعلونه برغبة حقيقة فى أصلاح ما أفسدوه، وتنبع هذه الرغبة من شعور صادق بالأسف والألم ، لأنهم حين أخطأوا قد أرتكبوا مالا يليق - بالمرء الذى يعرف لنفسه كرامتها ومروءتها وشرفها ، ولا يقبل لها الحطة واللؤم والدناءة ، أنه فى الوقت الذى يتواضع فيه معترفا بخطئه يستعيد لنفسه كرامتها وعزتها وشهامتها ، ويصفه الأخلاقيون حينئذ بأنه شخص يتحلى بالشجاعة الأدبية .

وتطلب الآية الكريمة من المؤمنين أن يكونوا على هذا المستوى من الشجاعة الأدبية مهما تكن النتائج التى تترتب عليها ، لأنها في النهاية شرف للفرد ، وصلاح للمجتمع ، يقول تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

وعندما تستمكن هذه الطبيعة فى نفس أمرىء فإنه لا يكتفى بمواجهة نفسه فى أخطائها ، أو بمواجهتها بترك ما هو أليق بها وأولى ، بل يجد عنده من هذه الشجاعة الأدبية ذخرا يمكنه من مواجهة الأخرين – عند وجود المقتضى – بأخطائهم ، أو بما هو أولى بهم ، رعاية لحقهم على أنفسهم ، ورعاية لحق مجتمهم عليهم ، وقد يجد فى ذلك بعض الحرج ، فيتصنع له الأساليب الرقيقة والوسائل المهذبة التى توصل إلى الهدف المطلوب بأقل قدر من الحرج ، وذلك ما تدل عليه الآيات الكثيرة التى تحض على الأمر بالمعروف ، وعلى النهى عن المنكر ، وفى الحديث الشريف الذى رواه مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

ومن كانت عنده مثل هذه الشجاعة الأدبية فإنه لا يأنف ولا يستنكف أن يتقبل مثل هذه المواجهة أو مثل هذه النصحية ولو صدرت ممن هو أقل منه علما أو كفاءة أو رتبة أو منزلة ، ولقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مشورة عدد من الصحابة حتى فى بعض المواطن الحرجة كمواطن القتال ، وقبل عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين ، وهو واقف على المنبر بين جماهير المسلمين قول امرأة تعترض عليه وترد كلامه ، مستشهدة بأية كريمةمن القرآن ، ولم يكتف بقبول أعتراضها حتى أقر أمام الجميع قائلا : أصابت المرأة وأخطا عمر .

هذه الشجاعة التى لا تبالى ما دامت تعتمد على قاعدة من الحق والأيمان ، وتنطلق إلى هدف يقيم الحق ويحميه ، قد يتعرض

صاحبها إلى التضحية بالنفس والحياة ، أو التضحية بالثروة والمال ، أو التضحية بالجاه والنفوذ ، وهذه الشجاعة لا يمكن أن تتحلى بها الا نفس مستقرة ، وروح مطمئنة ، تشعر بالسكينة والرضا والأمان . ذلك لأن النفس القلقة المضطربة ، المليئة بالحرص والرغبة ، المحاطة بعوامل الخوف والرهبة ، المفتقدة لعوامل السلام النفسى ، والأمان الروحى ، لا يمكن أن تجد لديها من الطاقة أو القدرة ما تستطيع به معرفة الحقيقة فضلا عن مواجهة النفس أو مواجهة الأخرين بها ، وهى لذلك تسلك مسالك ملتوية ، وتغطى على أخطائها بأخطاء أكبر غالبا ، وتمالىء الأخرين – ممن تخشى غضبهم وبطشهم – بأساليب النفاق والتملق والمراءاة ، وتزين لهم ما يحبونه ويميلون إليه من عمل السيئات .

والأنسان بفطرته وطبيعته يحب الحياة ، ويجب فيها الراحة والرفاهية ، ويخشى على ذلك من كل ما يتهدده أو يتنقصه ، وعوامل التهديد التى تحيط به كثيرة ، فإذا لم يكن لديه من القوة والشجاعة ما يطمئنه ويجعل نفسه تهدأ أو تستقر ، فإنه يظل فى حالة من الفزع والرعب يحيل حياته شقاء وتعاسه ، ذلك لأنه يخشى على حياته فلا يريد أن يواجه المخاطر وإن كانت فى ميدان الشرف والكرامة ، ولا يحب أن يتعرض للمعارك وإن كانت دفاعا عن الحق والقيم ، ويتمنى أن يعيش فى سلام ولو كان سلاما ذليلا حتى لا تتعرض حياته لما يخشاه . فهو يعيش حياته فى رعب قاتل خير منها الموت ، ويحيا ذليلا مهينا ، لا قيمة لحياته ولا معنى ، ويمثل هذا الشعور من الحرص والقلق والخوف يلتمس رزقه ،

ويحاول دائما أن يحصل منه على هو أكثر وأكثر ، لحبه للحياة ، ولحبه لمتاعها ولكن الحصول عليه مرتبط بعلاقات كثيرة بقيمها مع الاخرين ، فيبذل لهم من ماء وجهه ما يساعده على أقتناص ما لديهم ، بالحق مرة ، وبالباطل مرة ، وبارتكــاب الدنايا مرات ومرات

إن الشعور بالخوف من أكثر المشاعر قدرة على تدمير حياة الأنسان ، وجعلها خالية من أى معنى من معانى الترفع والأباء والكرامة ، ومن أى سبب من أسباب الراحة والسعادة ، إنه شعور هدام يهدم الأنسان من الداخل فلا يُبقى فيه شعورا كريما ، ولا خلقا طيبا ، ولا صفة شريفة ، وهو - فوق ذلك - يغرس فى النفس مشاعر الذلة والأستكانة والأستسلام فى جانب الحرص على الحياة ، ومشاعر الحرص والشح والجشع فى جانب طلب الرزق ، وهو فى أى ناحية من نواحى الحياة يغرس مشاعر الحقد والغل والحسد ، فلا يدع صاحبه يهنا فى حياته ، ولا يدع الأخرين يأمنون منه ومن نزواته ونزعاته ، وصاحبة إن كان فى حالة الضعف خنع وذل وأستكان وأن ملك والقوة و بطش وأعتدى . وبغى وطغى ولابد لاستنقاذ الأنسان من الوقوع فى براثن هذا الشعور الهدام من وضع شعور آخر يملؤه بالأمن والطمأنينة والسلام ويعيد إليه توازنه النفسى ، ليبرأ من هذه الأفات ، فيحيا حياته سعيدا سليم القلب والنفس والفؤاد ، ويأمن الناس من حوله فى علاقاتهم به ، وتعاملهم معه ، ولقد وصف القرآن الكريم حالة هذا الأنسان الذي ملأه الشعور بالخوف ، وحالة الأنسن الذى أستنقذه الله منه فقال تعالى :

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

المعارج / ١٩ – ٢٣ ، ويقول جل شأنه :

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾

العلق / ٦ – ٧ ، فالأنسان تغلبه طبيعته فى حب الحياة ، وفى حب ما فيها من متاع ونعيم وينشأ عن هذا الحب الحرص الذى ينشأ معه الخوف والهلع ، ولهذا عبر القرآن الكريم بقوله :

* ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾

ولا يخرج الأنسان من هذا الشعور ويتحرر تحررا كاملا من هذا الشعور الهدام الذى يدمر النفس والروح وهو شعور الخوف ، إلا إن يشعر من ناحية الحياة ومن ناحية الرزق بالأمن والأطمئنان

لكن كيف يمكن أن يحصل على شعور الأمن والأطمئنان ، فى جانب الحياة وفى جانب الرزق وهو يرى الأسباب لهذه الأمور من حوله تتجاذبه ، وتجعله يرتبط بها ويتعلق بأهدابها ، ويعتقد أنه لا يستطيع أن يظفر برزقه ومتعه المادية إلا عن طريقها ، وأنه يستبقيها بمثل هذه الأسباب وهذه الأساليب إن يحافظ على حياته ويسبقيها إلى أمد أبعد ، وفترة أطول ، فهو دائما يلهث وراء هذه الأسباب ، وهو دائما يصطنع هذه الأساليب ، فيعيش ممزق النفس ، مبعثر المشاعر ، قد علقته أسبابه بالحيرة ، وأوقعته أساليبه فى الأضطراب ، ففقد الأمن والراحة النفسية .

إن الآية الكريمه التى ذكرناها قد وصفت علاج هذه الأفة ، ولا غرو أن يكون العلاج كما يعرفه المصلون الذين يحافظون على صلوتهم ، إنه الإيمان بالله إنه عقيدة التوحيد ، التى تتجاوز هذه الأسباب المادية إلى ربها وخالقها ، فتعلم أنه لا يملك الموت ولا الحياة ، سوى الله ، ولا يبسط الرزق أو يقدره ، سوى الله ، بل تعلم ما هو أكثر من ذلك ، وتعلم أن الأجل محدد عند الله لكل مخلوق ، وأنه لا يمكن لأحد مهما يكن أن يتقدم أو يتأخر عن أجله المحدد له ، وأن الرزق مقسم محدد فلا يستطيع أحد مهما يكن أن يزيد فيه أو ينقص منه ، وبذلك ينقطع الأمل مما سوى الله ، فيتحرر الأنسان من الخوف من العباد ومن الأسباب الدنيوية ، ولا يبقى له أمل إلا فى الله سبحانه وتعالى ، فيلتئم شمله النفسى ويتوجه وجهة واحده ، إلى الله وحده ، بعد أن كان موزعا بين الأسباب المتعددة ، ممزق المشاعر بين ما يرضيها وما يغضبها ، وبين ما يساعد على تحصيلها أو على أضاعة الفرص فيها وتعز نفسه وتترفع ، بعد أن كانت مستذلة مستعبدة ، وتشعر بالأطمئنان والأستقرار فى جنب الله ، بعد أن كانت حائرة مضطربة ، تعيش حالة القلق والترقب والأنتظار .

ولقد علم الله سبحانه وتعالى مدى عمق هذه المشاعر التى يتعلق بالحياة والرزق ، وكيف تثير فى النفس القلق والأضطراب ، فتحيل الحياة إلى جحيم مقيم ، وتسخ الأنسان من حال الكرامة والرفعة إلى حال الضعة والذلة ، لهذا كرر الحديث فى هذين الجانبين

لتستقر هذه المعانى فى نفس المسلم فيعيش بإيمانه وتوحيده كريما عزيزا .

فأذا أضفنا إلى ذلك أن أجل الأنسان محدد لا يستطيع أحد أن يتقدمه أو يتأخر عنه ، زالت عنده جميع دواعى الخوف من هذا الجانب وأمكن له أن يواجه الأخطاء حين يناديه الواجب ، واثقا من أنه لن يطيل حياته جبن أو فرار ، ولن يقصر حياته إقدام أو تضحية ، بقوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا

آل عمران / ١٤٥ ويقول :

وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

المنافقون / آخر السورة ، ويقول :

فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

الأعراف / ٣٤ ويقول :

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

النحل / ٦١ وما بين الإيمان بأن الموت والحياة بيد الله :

أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ

الملك / ٢ ، وأن الموت حقيقة مقررة لابد أنه آت لا ريب فيه

قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ النساء / ٧٨ ،

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الجمعة / ٨ وأن الموت بأجل محدد لا يتقدم ولا تيأخر :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

الأنعام / ٦١ ، فأن الإيمان بذلك يجعل الأنسان يستقر ويطرح عن نفسه شعور القلق والأضطراب والجرى وراء الأسباب بغير تعقل ، ومن هنا لا يفرط فى كرامته ولا فى حقوقه ولا فى مبادئه ولا فى قيمه وأخلاقه لأنه عندئذ لا يبالى ما يصيبه فى حياته ، لأن ما يصيبه فيها مقدور لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى وإن أجراه بالأسباب ، ومهما أبدى من الحرص والحذر فأن ذلك لن يطيل فى عمره ، كما أنه مهما واجه الخطر فى سبيل الحق فإن ذلك لن ينقص من عمره إيمانا وتصديقا بوعد الله سبحانه وتعالى.

فأذا إطمان من هذه الناحية وشبعر بالأمن والأستقرار ظهرت أمامه مشكلة الرزق وهى مثل مشكلة الحياة تبدو وكأنها مرتبطة بالأسباب المادية والبشرية ، وكثيرا ما أستذلت لقمة العيش النفوس وأستبعدت الشعوب ، وقيل فيها أبشع ما قيل « جوع كلبك يتبعك » ولأنها شديدة التأثير فى الكرامة الأنسانية فقد أولاها القرآن الكريم من العناية مثل ما أولاه لمشكلة الموت والحياة فبين أن الرزق لا يملكه الا الله ، وأن بسطه وتقديره من أمر الله ، وأنه محدد لا تريده حيله الصديق ولا تنقصه وسائل العدو تنقصه وسائل العدو ، لهذا يطمئن العبد المؤمن الذى أمتلأ قلبه بعقيدته فلا يستذل نفس من أجل لقمة العيش ، لأنه لن يحصل عليها بالذلة ، ولا يستكبر

على السعي والعمل ، لأنه لن يحصل عليها بالكسل والخمول و لكنه يلتمس ما عند الله من رزقه باتباع أسبابه وتنفيذ أمره ونهيه :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ﴾ الروم / ٤٠

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ العنكبوت / ١٧

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ النحل / ٧٣

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ الذاريات / ٥٨

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ﴾ الملك / ٢١

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾

فاطر / ٣ ، وأتساع الرزق وضيقه ليس بيد أحد من العالمين بل هو تقدير العزيز العليم :

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ الرعد / ٢٦ .

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ الأسراء / ٣٠

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾

سبأ / ٣٩ ، حتى الدواب والأنعام لا يملك رزقها إلا الله تعالى وحده

* ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾

هود / ٦

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾

العنكبوت / ٦٠ ، ومن هنا لا ينبغى أن نجعل الرزق سببا عاجلا أو مؤجلا فى التخلص من الأولاد :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾

الأنعام / ١٥١ ،

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾

الأسراء / ٣١ .

الرزق إذن ، وموعده ، وكمية ميته ومكان الحصول عليه مثله كمثل الموت والحياة لا يعلمه ولا يملكه إلا الله وحده ، والإيمان بالله ووحدانيته تحتم على المؤمن أن يطمئن إلى ذلك وتغرس فى نفسه شعور الأمن والطمئانينة والأستقرار ، لأن حياته وموته ، ولأن رزقه وأجله ليس بيد مخلوق يمكن أن يتحكم فيه بسببهما ، أو بسبب

واحد منهما ، وأنما هو بيد الله وحده مالك الملك الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويعطى ويمنع ، ويحيى ويميت ، ولا يملك الخير سواه ، لهذا يقابل المؤمن ظروف حياته حر النفس أبى الشعور وافر الكرامة واثق الخطا مطمئن الضمير مستقيم النظرة ، لا يضحى بشيء من مبادئه أو أخلاقه أو دينه أو كرامته الأسلامية لأحد من العالمين وإنما يقدم فى ميدان الجهاد وأثقا من أحدى الحسنيين مطمئنا إلى أنه لابد أن يستوفى أجله ، ويقدم على عمله بجد ونشاط واثقا أنه سوف يستوفى رزقه الذى قدر له بغير زيادة ولا نقصان فيجيد فى عمله ، ويقدم خدماته لأخوانه بنفس راضية قانعة مطمئنة فتسعد الحياة ، وتقوى أواصر المحبة فى ظل العزة والكرامة الشاملة:

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

آل عمران / ٢٦ .

العقيدة وبناء الأنسان

تحرير الأرادة

يتساوى الناس جميعا من حيث أصل الخلقة . فكلهم أبناء آدم عليه السلام ويتساوون جميعا من حيث المظهر . فقد أحسن الله تعالى خلقهم ووهبهم قواما معتدلا ورأسا عاليا . وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة . ويتساوون فيما سخر الله لهم من الكون ليتناول كل منهم قدر عمله وجهده وطاقته : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

فمن حيث ما وهبهم الله وأعطاهم . ومن حيث ما مكنهم ويسر لهم . يتساوى الجميع. إنما يتفاوت كل منهم بعمله . وبسلوكه وبتصرفاته . حيث يظهر فى هذا العمل . وفى هذا السلوك والتصرف شخصية صاحبه ويتميز موقفه في مواجهة مختلف المناسبات والظروف .

فالأنسان على ذلك لا يتميز بمظهره . ولا يتميز بنسبه . ولا يتميز بما يملك مما سخره الله له وإنما يتميز بموقفه وصدق من يقول إن الإنسان موقف .

ويظهر موقف الأنسان فى صورة واضحة عندما يحاط بظروف ذات وضع خاص يخالف نمط الحياة العادية . وقد تكون هذه الأوضاع الخاصة سارة إلى درجة كبيرة . وقد تكون محزنه أو سيئه إلى حد كبير . ويكون الأنسان عندئذ عرضه لانفعالات قد تعنف وتشتد بين فرح غامر وغضب قاهر ويأس أسر وحزن عميق إلى ذلك من الأنفعالات العنيفة وجوهر الأنسان وحقيقتة يظهران فى مثل هذه الأحوال والظروف حيث تكون نظرته وفكرته وأستقراره وثباته وتدبيره وتقديره وتوجه عزمه وإرادته . صوره سلوكه وتصرفه . يكون ذلك كله مما يرسم حقيقة الأنسان الذاتية ، وجوهره الداخلى فى صورة ظاهرة . وهيئه بارزه .

ومثل هذه المواقف تأخذ مستويات متعددة . فقد تكون على مستوى فردى حين تكون الظروف فردية وقد تكون على مستوى الأسرة . ومستوى القرية ومستوى الشعب والأمة . بل وعلى مستوى العالم ، ويحكى لنا التاريخ كما تحكى لنا الأحداث الراهنه مواقف كثيرة لأشخاص مختلفين . بعضها مواقف عظيمة تحكى لنا عظمة صاحبها وتترك تأثيرها على من حولها بقدر ما فى الظروف المحيطة من شمول وأتساع وبعضها مواقف سيئه تحكى لنا الصورة السئة التى كانت مختفية فى نفس صاحبها . وتترك بالمثل أثارها السئه فيمن حولها . على قدر شمول ظروفها وصلتها بالأخرين .

وعندما يذكر هذا الأنسان أو ذاك فإنه لا يذكر هذا الأنسان أو ذاك فإنه لا يذكر بمظهره وصفاته الظاهرية . أو بغناه وثروته وقوته

المادية . إلا بصورة ثانوية وعرضية . ولكنه يذكر عادة بما فعل وقدم . وبما حقق وأنجز أنه يذكر فى النهاية بمواقفة فى الحياة بمواقفه مع نفسه . وبمواقفه من أسرته . وبواقفه من مجتمعه وأمته ومن الأنسانية بصورة عامة .

وعندما ننظر إلى الأنسان باعتبار مواقفه فإننا فى الحقيقة ننظر إلى إرادته . فإرادته هى التى حددت له المواقف الذى يختاره والذى يتمسك به . والذى يمكن أن تتغير كل الظروف المحيطة به . ولكن هذه الإرادة تظل تملى على صاحبها الموقف المناسب لكل ظرف جديد . بحيث يكون الموقف هو الموقف نفسه أذا تكررت الظروف والأحوال نفسها . لأن هذه الإرادة التى تملى على هذه المواقف إرادة واحدة لا تتغير ولها أتجاه ثابت وأصل واحد . إنها حقيقة نفسه . وجوهر روحه وصورة أنسانيته الداخلية . ولهذا فإنها تحدد لصاحبها الموقف الذى يتفق مع طبيعتها . ويتناسب مع صفاتها . والذى يتسبب له فى الأستقرار والأنسجام فأن حاول أن يخالف هذه الطبيعة . ويصطنع موقفا يتعارض مع هذه الأرادة – لسبب من الأسباب – أصابة الأضطراب . وظهر عليه القلق وشعر الجميع من حوله أنه يتخذ موقفا غير طبيعى بالنسبه له .

وتنتهيمن ذلك إلى أن الأنسان هو ما يريد لا ما يظهر منه فقط ولا ما يظهر عليه . ولاما يملك من أسباب القوة والغنى والجاه الأنسان هو إرادته سواء أستطاع أن يظهر هذه الإرادة على مستوى شامل عام أو أن يظهرها على مستوى أسرته وخواصة أو

على مستواه الفردى . أو لم يستطيع أن يظهر هذه الإرادة فى صورة بارزة شاهدة . ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم - « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى » ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ ﴾

البقرة / ٢٨٤ . كما يقول

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

آل عمران / ٢٩ .

ومن أجل أن الأرادة هى حقيقة الأنسان . وأن الأنسان لا يكون إنسانا على الحقيقة بغير أن تكون له إرادته . فإنها لذلك تعتبر ركنا أساسيا فى بناء إنسانيه الأنسان وتكوينه . كما يعتبر هدمها فى الأنسان هدما لكيانه وذاتيته ، وتحطيما لمعنوياته وشخصيته .

وعندما كان الرق سائدا ، وكان السادة يتحكمون فى عبيدهم ، فأنهم كانوا يمتلكون منهم أجسادهم وعضلاتهم . ويسخرونهم فى مصالحهم وأعمالهم ، أما أروحهم وقلوبهم وعقولهم ، أما إرادتهم الداخلية . فقد ظل بمعزل عن الرق والعبودية إلا أن يستسلم العبد إستسلاما داخليا فيفقد ذاته وشخصيته النفسيه ، كما فقد حريته فى الحركة والتصرف الخارجى لكن التاريخ يروى لنا كثيرا من هؤلاء العبيد الأرقاء الذى ظلوا محتفظين لارادتهم بحريتها ولأنفسهم بشخصيتها وذاتيتها .

والعقيدة الأسلامية وهى التى تبنى كيان الأنسان كإنسان ، لا يمكن إلا أن تكون ظهيرا قويا . وسندا متينا لهذه الأرادة التى بها تكون الأنسان أنسانا .

لكن أي إرادة تلك التى تبنيها هذه العقيدة .

يظن كثير من الناس أنه لا يمكن أن يكون قادرا على أستعمال هذه الأرادة بحرية مالم يكن قادرا على تكون للأنسان أرادته وأن أن يختار الشر كما يختار الخير . «يفهمون معنى حرية الأسلام فى هذاالأطار . والأنسان عندهم يكون حر الأرادة بمعنى أن يكون قادرا على أن يفعل كل ما ترغبه نفسه وأن تنال كل مشتهياته ، حسنا كل ما يفعله و خبيثا .

وهذا الظن غير صحيح ، بل هو باطل ، وهذا الفهم لحرية الأرادة فهم سقيم ، يحط من شأن الأنسان ، ويضع من قيمته ، ويجعله فى الحقيقة عندما لهواه وشهواته لأخر الأرادة والضمير .

ليست حرية الأرادة فى القدرة على أختيار الشرور وفعل السيئات ، ولكن حرية الأرادة تبرز وتتجلى فى القدرة على أختيار الخير وتجنب الشر ، وفعل المعروف وترك المنكر . ، الإ فأى حرية وقدرة على ممارسة الحرية فى أنسان يتدهور على سفح منحدر حتى يصل إلى الحضيض ، وذلك هو الأنسان الذى ينزلق مع رغباته وشهواته دون تميز بين حق وباطل ، أو خير وشر أو قبيح وجميل ، وإنما تظهر الحرية فى إستعمال الأرادة حينما يتوقف الإنسان بارادته فى منعطف من منعطفات هذا السفح ليحاول تغيير مساره والأرتقاء بنفسه ، والتوجه إلى القمة وبذل الجهد

وتحمل المشقة فى سبيل الصعودإلى هذه القمة مخالفا بذلك دواعى الكسل والراحة والأستسلام ، وذلك هو الأنسان الذى يمتنع عن متابعه هواه .. وعن تلبية ما تطالب به نزعاته وشهواته . ثم يعمل على أكتساب المحامد . وفعل المكرمات ، مما يظهر حقيقة معنى حرية الأرادة .

فحرية الإرادة فى الأنسان هى أن يكون قادرا على أختيار الخير وفعل المعروف بغير أن تكون هناك قيود تكبله وتحوله بينه وبين ذلك .

ولسوف نجد أن عقيدة التنوحيد تعمل على تحطيم جميع القيود التى تعوق الأنسان وتمنعه من الأنطلاق فى طريق الحق والخير والجمال .

وهذه القيود قد تكون صادره من مصدر خارجى وقد تكون صادرة من مصدر داخلى فالمصدر الخارجى هو ما يحمله المجتمع من ظلم وتقاليد وأعراف بل وقوانين تحكم سواه المجتمع ،أفراده ، وتتحكم فى طريقه تفكيرهم وتصرفاتهم ، وتجعل تفكير الأنسان يدور فى نطاق هذه التقاليد والأعراف بغير رؤيه ولا تدبير وقد تكون هذه النظم والتقاليد مبنية على أسس فاسدة ، أو شابتها الخيالات البشرية ، والأوهام الضالة ، مما يتسبب فى فساد الفكر ، وفساد النتائج التى يتوصل إليها العقل وينتهى إليها الفكر من أجل ذلك وجدنا عقيدة التوحيد تهتم كل الأهتمام بتحطيم هذا القيد الذى ينحرف بالعقل والفكر حتى يصبح العقل حرا فى منهجه حرا فى ترتيب معلوماته ، حرا فى تقرير النتيجة الصحيحة التى يصل إليها بفكر بعيد عن التأثير وبالضغوط الأجتماعية

والتقاليد والأعراف السائدة وقد بينا فيما سبق كيف توصل القرآن الكريم والسنة النبوية إلى تحطيم هذا القيد . وتحرير العقل من نيرة و قبضته . وهذه خطوة أساسية ، تجعل العقل يتوصل إلى الأحكام الصحيحة ليضعها أمام إرادة الإنسان ، فلا تخدع الأرادة بالأحكام الضالة ، والنتائج الفاسدة ، وتكون بذلك قادرة على التميز بين الخير والشر فأذا أختارت فإنها تختار على بينه .

ومع ذلك فإن هناك من العوامل الداخلية ماقد يفسد على الأنسان جهده فى تحرير عقله من قيودالخرافات والأوهام ولتقاليد البالية والفاسدة . هذه العوامل تظهر فى ميوله ورغباته المختلفة ، ما بين الحب والكراهية ، والرضا والغضب ، والأقبال والنفور وحاجات الأنسان ورغباته لا تنقضى وكلما تحققت له حاجة ، وقضيت له رغبة . برزت له حاجات ، وأشتعلت له رغبات ، ونفسه ووسواسه يزنيان له هذه الحاجات وهذه الرغبات ، وتسخركل قواه - بما فى ذلك قواه العقلية - فى تبرير هذه الحاجات والحصول على ما متطلبات هذه الرغبات .

وهذا القيد الواجدانى والعاطفى الذى يمنع الأنسان من التوجه بإرادته الحرة إلى الخير قد علمت عقيدة التوحيد على تحطيمه كذلك وتحرير وجدان الأنسان تحرير كاملا بحيث تكون ميوله ورغباته محكمة بالقواعد الشرعية المنضبطة بضوابط الحق والسمو الروحى والأخلاقى وقد بينا فى الفصل الخاص بتحرير الواجدان كيف توصلت عقيدة التوحيد إلى هذا الجانب الخفى الداخلى من جوانب الأنسان لتحريره وتنويره .

وبهذا تصبح الأرادة حرة من قيود المجتمع من الخارج ومن قيودالعاطفة الجامحة من الداخل ، ويمكن لها أن تتجه مباشرة لأختيار مسالك الحق وأسباب الخير وبدوعى البر والمعروف .

إلا أنه يبقى بعض الأمور المشتركه بين الضغوط الخارجية والضغوط الداخلية . وهى تلك العوامل التى تثير فى نفس الأنسان عوامل الرهبة والخوف والقلق ، بالنظر إي ما وضعه الله حول الأنسان من قوانين الأسباب والمسببات ، وإرتباط الأجل والرزق وغيرهما بحسب ظاهر الأمر بهذه القوانين وبهذه الأسباب ، وأعظم هذه الأسباب التى تثير المخاوف والقلق ، وهو ما يفرضه بعض الطغاه من أصحاب الجاه والثراء والقوة المادية ، فتقلق مشاعر الأنسان بهذه الأسباب الظاهرية ، ويسرى فى نفسه القلق والخوف والأضطراب وتصبح حياته بناء على ذلك مليئة بأسباب التعاسه والشقاء ، وتصبح أفعاله وتصوفاته مرتبطة بملاحظة رضا هذا الشخص أو ذاك وبمحاولة تجنب غضبه وسخطه مما يؤثر ولاشك فى أسلوب معالجته للأمور وفى أتجاه المواقف المناسبة للظروف المحيطة به خوفا على حياته أو على رزقه أو على غيرذلك من خطوط هذه الدنيا . وقد بينا فى الفصل السابق مباشرة كيف عملت عقيدة التوحيد على إشعار الأنسان بشعور الأمن الروحى والأستقرار النفسى وتحريره من الخوف والقلق ولاأضراب ، وربط شعوره وفكره ووجدانه برب الأسباب ومدبر المسببات ، وأن كل شىء من الرزق أو الأجل مقدر عنده بمقدار فلا يتجاوزه ولا يتقاصر عنه ولا يملك أحد من المخلوقين مهما تكن قوته ونزوته ونفوذه لذلك تعبيرا ولا تبديلا .

وبهذا تتخلص إرادة الأنسان من جميع هذه القيود حيث يتحرر العقل فتصبح أحكامه دقيقة لا تتجاوز الحق ، فيتبين الخير من الشر ، ويتميز الجميل من القبيح ، ويتحرر الوجدان ، فلا يميل مع الهوى ولا يزين السيئات . ولا يلبس الحق بالباطل فيصبح الوجدان محايدا لا يضغط على العقل فى أحكامه ولا على الأرادة فى أختيارها ، ويتحرر الأنسان جمله من دواعى القلق وعوامل الخوف وشعور الحرص والأشفاق فلا يدل لعبر الله . ولا يبيع الحق فى سبيل تأمين حياته أو زيادة رزقه ولا يفرط فى واجب أو يرتكب حماقه من أجل إرضاء فلان أو تجنب سخطه وغضبه وإنما يراعى دائما وجه الحق والخير والجمال مطمئنا إلى جانب الله وأتقافى وعده متيقنا أن الأجل والرق وغير ذلك من الأحوال التى تحيط بالأنسان محدد ومقدر ولا يملك أحد تصريفة ولا تدبيره الا الله وحده .

وحينئذ نجد الأرادة الحرة الخالصة ، البرئية المنزهة عن المؤثرات الخارجية والمؤثرات النفسية الداخلية ويصبح هذا الأنسان الذى حررته عقيدة التوحيد من القيود حر الأرادة وأذا تحررت الأرادة أصبحت قادرة على أختيار الحق بغير لبس ، وعلى فعل المعروف بغير تردد ، وعلى نصرة الخير بغير تخاذل ، وعلى معاونة الأخرين بغير شح وعلى تقبل النعمة بغير بطر وعلى تبادل المحبة والسماحة وبذل الندى والبر من ذات اليد وذان النفس مرضاه الله ورضا بما عند الله .

العقيدة وبناء الأنسان
عقيدة العلم

يزداد كل يوم هؤلاء الذين يؤمنون بعقيدة التوحيد ويتبعونها ، وتصلنا بعض أخبارهم فنغتبط بذلك ونفرح ، خاصة أن عدد معتبرا منهم يكونون من أهل أوربا وأمريكا ، ومن رجال الحضارة الغربية بوجه عام ، وفى مقابل ذلك تصلنا أخبار أخرى عن تمكن بعض الهيئات التبشيرية والتبصيرية من أغراء بعض المسلمين وآخراجهم من عقيدة التوحيد الخالصة الصافية الأسلامية إلى عقيدة التثليث أو إلى غيرها من العقائد فنشعر لذل؛ بالأسى والأسف .

أن هذا العصر – كما يقولون – هو عصر العلم بكل فروعه وأبعاده ، ومن شأن العلم أن يساعد على التقدم الفكرى والعقلى ، والتوحيد كما يرى العلماء هو آخر وأعلى تطور فى نظام العقائد الأنسانيه . ومن المعقول – أذن – أن يتجه الأنسان – بوحى العلم نفسه – نحو التوحيد ، وأما أن تنعكس القضية ، ويترك عقيدة التوحيد بعض أهلها إلى عقيدة التثليث أو إلى عقائد أخرى ، فذلك هو ما يثير التساؤل .

ولعل الجواب الذى يؤكد الحقيقة العقلية و ويزيل هذا التناقض الظاهرى ، هو أننا عندما ننظر إلى مستوى كل من الجانبين ، جانب الدين يقبلون على عقيدة التوحيد ، وجانب الذين يهجرونها ،

نجد أن العلم والجهل يضعان الفارق المميز بين الفريقين فهؤلاء الذين يقبلون على عقيدة التوحيد ، يقبلون عليها ، على الرغم من عجز الدعاة المسلمين ووقوعهم فى نطاق الحصار العالمى ماديا وأجتماعيا وسياسيا وأقتصاديا ، فما الذى جعلهم يقبلون على عقيدة التوحيد ، مع ضعف الدعوة الأسلامية وضعف القائمين عليها ؟! أنه العلم .

أن هؤلاء الذيمن أمنو بالتوحيد عقيدة ، وأتبعوا ما تمليه هذه العقيدة من مبادىء وقواعد ونظم لم يفعلوا ذلك الا بوحى من دراساتهم وعلومهم ، وقد تعاونت هذه العلوم – مع رغبتهم الصادقة فى معرفة الحق وأتباعه والدفاع عنه – فى جعلهم يجدون فى عقيدة التوحيد الأسلامية ما ينفق كل الأتفاق ، ولا يتعارض ادنى تعارض ، مع معطيات العلم وحقائقه ، بل مع فروضه ومسلماته ، ولما كانوا ينشدون السلام مع نفوسهم وضمائرهم ، والسلام مع فكرهم وعلمهم ، لم يجدوا بدا من أن يلجئوا إلى هذه العقيدة الأسلامية يجدون فيها الراحة والطمانينة والأستقرار ، والأنفاق الكامل بين ما تقتضيه العقيدة ، وما يوحى به العلم الصحيح .

وأما هؤلاء الذين تصلنا بعض أخبارهم أن المبشرين وأشياعهم قد أستطاعوا – بوسائلهم المختلفة المعززة بجميع الطاقات العالمية ، مادية وأجتماعية وسياسية وأقتصادية – أن يصرفوا بعضهم عن عقيدته الأسلامية ، وهى عقيدة التوحيد الخالص إلى غيرها من العقائد فأننا بتتبعنا لاحوالهم نجد أنهم لم يفعلوا ذلك ، الا بسبب أنقطاع الصلة بينهم وبين أسباب العلم الصحيح ، فأنهم

غالبا لم يجدوا من يشرح لهم هذه العقيدة ويبينها لهم ، وأنما تلقوا أسلامهم بطريقة وراثية بحيث يوصف المرء منهم بأنه مسلم لأنه نشأ من أبوين مسلمين ، فأذا ذهبت تختبر حياته أو سالته عن معلوماته الأسلامية ، لم تجد عنده أثاره من علم ، ولا فكرة واضحة عن تلك العقيدة التى ينتمى إليها بحكم الوراثة ، فأذا أضيف إلى ذلك نوع من الفقر والحاجة ، فتلك هى الفرصة التى يستغلها هؤلاء الذين يريدون أن يخرجوه من وصفه الإسلامى ، حيث يجد عندهم بعض ما يسد حاجته وبعض ما يحرك عقله وفكره ، وبعض المغريات المادية ، والمساعدات الأجتماعية فيأنس بهم ، ويلجأ إليهم ، ويحيا حياتهم بغير فكر سليم ، أو علم صحيح .

ومن هنا نجد أن عقيدة التوحيد ، هى عقيدة العلم ، بمعنى أن العلم يشهد لها ويدل عليها ، ويقود فى النهاية اليها ، ويلزم أصحاب العقول والضمائر باتباعها والإيمان بها .

وإذا كان العلم – كما رأينا – من أقوى أنصار هذه العقيدة ، فلا جرم أن نجدها حريصة كل الحرص على طلب العلم ، وعلى نشره ، وعلى التماسه فى كل مكان ومناسبه فهى تآمر به ، وتحث عليه ، وتلفت الأنظار إلى وجوده ، وترفع من شأنه وشأن طلابه والعاملين فى ميادنيه ولم لا ، ومامن علم صحيح يهتدى إليه الأنسان ويتوصل إلى معرفته الا ويزيده بصيره فى عقيدته ويقينا من أمره ، وثباتا فى دينه ، وإطمئنانا وأنسا إلى ربه .

ولذلك فأننا هنا نجد معنى جديدا ، لتلك المقوله الصادقة التى قالت أن عقيدة التوحيد الأسلامية هى عقيدة العلم ، فقد عرفنا

أنها عقيدة العلم ، بمعنى أن العلم يؤمن بها ، ويدل العلماء عليها ،
أما هذا المعنى الجديد فهو أنها عقيدة العلم ، بمعنى أنها تأمر
أهلها بتحصيل العلم وجمعه ونشره وتطويره ، وتوسيع أفاقه
ومجالاته وبذله لأهله .

ولقد قيل فيما قبل على لسان بعض العلماء الذين واجهوا
خصومات عنيفه من جانب بعض أصحاب العقائد المختلقه ، أن
الدين خصيم العلم ، كما أن العلم خصيم الدين ، ولم يكونوا
يعلمون أن عقيدة التوحيد الأسلامية هى التى فتحت أبواب العلم
على مصاريعها وأمرت أتباعها أن يدخلوها ، وأن يتوغلوا فيها
بحرية وثبات وأقدام ، ولو أنهم كانوا قد عرفوا ذلك لما قالوا
مقالتهم تلك التى صدت كثيرا من العلماء عن البحث والدرس
ومعرفة الحقيقة فى جانب العقائد ولذلك فأن هؤلاء الذين تخلصوا
من وهم هذه المقوله وتوجهوا بعقل مفتوح ووجدان سليم ، وبحث
علمى مستقيم توصلوا إلى هذه العقيدة ، ووجدوا فيها مرفأ
السلامة وبر الأمان . وصح منهم أن يقولوا مقالة جديدة أن عقيدة
التوحيد هى نصيرة العلم ، وإن العلم نصير التوحيد ، وإن العلم
نصير التوحيد ، وأن شخصية الإنسان وبناءه الأنسانى يظل
متداعيا مضطربا ، لا يهدأ ولا يستقر ما لم يرتكن فى عمله وعقله
وضميره إلي هذه العقيدة التى هى عقيدة العلم الصحيح ، والتى
تنادى على الأنسان أن يستكمل ذاته وشخصيته بالعلم لأنه كلما
أزداد علما ، أزداد هداية ورشادا ، وأزداد إيمانا ويقينا ، وأزداد
أدركا ومعرفه بنفسه وبأنسانيته ، وأزداد التحاما بالكون والحياة
وسائر أخوته من بنى الأنسان مرضاة لرب الناس ، ملك الناس ،
اله الناس .

أليس أول ما نزل من وحي الله فى هذا الدين وفى هذه العقيدة هو قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾

العلق / ١ - ٥ !! فلو قلنا بعد ذلك أن رسالة الأسلام هى رسالة العلم ، لما جاوزنا الحقيقة من كلا الجانبين من جانب أن الأسلام هو النهاية الحتمية التى يؤدى إليها العلم الصحيح ، ومن جانب أن العلم هو المطلب الأساسى الذى يحققه الأسلام ليكمل به بناء الشخصية الأنسانية .

وعندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يبرز كرامة آدم عليه السلام أمام الملائكة كان جانب العلم هو الجانب الذي أبرز هذه الكرامة . ويقص القرآن علينا هذه القصة ذات المعنى العميق ، والمغزى البعيد فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ ﴾ البقرة / ٣٠ - ٣٣ .

وبمثل هذه الأشارات التى تبعثها هذه الآيات نعلم أن كمال الأنسان وكمال أنسانيته يعتمد أساسا على العلم ، وأن كرامته ومنزلته ورفعته منوطة بما يحصل من علم وأن العلم هو الجوهر الحقيقى فى بناء الأنسان ، وأن بناء الأنسان لابد أن يرتكز على أساس من العلم وإن عقيدة التوحيد تدفع الأنسان دفعا لكى يكتمل فى ذاته وشخصيته بطلب العلم .

أن العلم هو المفتاح الدقيق لباب الأيمان ، ومالم يدرك الأنسان، – عن طريق العلم – حقيقة التوحيد ، لم يستطيع أن يتخذ منه عقيدة يجعلها محورا لفكره ، وأساسا لسلوكه ، وغاية لسعيه وجهاده ، ومقياسا لشئونه وعلاقاته .

الا ترى أن العالم فى علم التشريح من علوم الطب مثلا ، حين يتعمق فى علمه ويطلع على ما فى تركيب الجسم بصورة عامة ، وما فى جهاز من أجهزته بصورة خاصة وما فى تفصيلات كل جهاز من هذه الأجهزة بصورة أخص ، فماذا يرى ؟! أننا باعتبارنا غير متخصصين نسمح منهم فى وصف هذه الدقائق العجب العجاب ، مما يجعلنا نخر لله ساجدين ، معترفين بعظيم الفضل وبالغ المنة ، وسابغ النعمة ، مقدرين أن الله على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علما ، فما بالكم بالطبيب الذى يباشر هذه الدقائق بنفسه ، ويمارسها بفكرة ويده . ويلمسها لمس اليد ، ويراها رأى العين ، ويدرك بعض أسرارها أدراك العقل والفؤاد أنه – لا شـك – يكون أكثر منا إيمانا وأعمق يقينا ، لأنه عـرف ما عرفه عن خبرة وممارسة ومشاهدة مباشرة .

وهكذا لو ذهبنا نستطيع مختلف فروع العلم فى كل ميدان من ميادين المعرفة ، أن علماءه الدين تخصصوا يستطيعون أن يكتبوا المجلدات الطوال ويستفرغوا جهدهم ثم لا يصلون فى النهاية إلى عشر معشار ما يحتوى عليه ميدانهم العلمى من حقائق وأسرار ، أبدعها رب العالمين ، وقدرها بعمله وحكمته . وأنشاها وفق أرادته بعظيم قدرته ، ولا يسع العالم المنصف الذى يتدبر مادة معلوماته الا أن يسجد لله خاشعا ضارعا ، وهؤلاء هم العلماء حق العلماء ، الذين أستفادوا بعلمهم فى أنارة قلوبهم ، وشرح صدورهم ، وتهذيب وجدانهم ، وترقيق عواطفهم ومشاعرهم ، وأتصال أورخهم بمصدر وجودهم ، وبارىء هذا الكون بتقديره وتدبيره فى هذه الصورة المحكمة ، والصنعه المتقنه ، والنظام العظيم :

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

الملك ٣ – ٤ ، فجيشة الله تتبع – ولابد – العلم الصحيح الذى يصل إلى غايته ولا يتوقف عند ملاحظة الظواهر المادية وأثبات التقريرات الوصفية ، بل يتجاوز ذلك إلى ما وراء كل الأبداع البديع ، والدقة الدقيقة من قدرة قادرة ، وعلم محيط ، وتدبير وتقدير عظيم ، وهذه الخشية التى يبعثها العلم فى نفس العالم هى التى يكتمل بها بنانه الأنسانى ، فى جميع جوانبه الفكرية والأعتقادية ، والسلوكية والعلمية فى حياته الخاصة وحياته الأجتماعية .

أما من جوانبة الفكرية والأعتقادية فأن العلم والخشية يرتقبان به إلى مستوى رفيع يشهد فيه التوحيد مع الله سبحانه وتعالى مع الملائكة ، ولذلك يذكرهم القرآن فى نسق فيقول :

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

آل عمران / ٨١ فهذا المستوى الرفيع الذى تصرح به الآية الكريمة يبدو أولا فى أنهم يشهدون التوحيد ، وهو قمة العقيدة وقمة الأيمان ، ولا تتحقق الشهادة هذه على مستوى ما تشهد به العامة ، ولكن على مستوى يناسب درجة العالم ودرجة خشيته حتى يصل فيما صرحت به الآية ثانيا إلى أن يكون فى هذه الشهادة مع الله سبحانة وتعالى ومع الملائكة . فأى مقام أعلى وأن منزلته أسمى .

ولهذا يذكر الله درجات المؤمنين ويخص من بينهم العلماء فى قوله جل شأنه : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾

المجادلة / ١١ ، فهذى درجات فى الكمال الأنسانى مرتبطة بما يبلغة المؤمن من درجات العلم .

وعندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يمتن على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما أمتن به عليه تعليمه ما أتاه الله من العلوم المختلفة وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ النساء / ١١٣ .

أن الأنسان لا يكون أنسانا بجسمه وبدنه وقوة عضلاته وجمال ملامحه وأنما يكون أنسان حقا بعقله وروحه ووجدانه . وأذا كان غذاء البدن ما هو معلوم فأن غذاء الأرواح والعقول والوجدان ، وهو العلم والحكمة وزينتها وجمالها ما ينشأ عن ذلك من الخشية والتقوى ولذلك فمهما أستزاد الأنسان من خير وبر فأولى به أن يستزيد من منافع الروح والعقل والوجدان ، وذلك هو العلم ، ولذلك يأمر الله سبحانه وتعالى حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يستزيد من العلم فيقول له :

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

طه / ١١٤ ، ولذلك هو ما ينبغى أن يحرص المسلم على طلبه دائما من الله فيقول :

﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

فى كل وقت وفى كل حين ، ففى ، العلم تتحقق أنسانيته الأنسان ، وفى زيادة العلم يرقى فى درجات أنسانيه إلى المستوى الذى ذكرناه فى شهادة التوحيد .

فعقيدة التوحيد تدفع الأنسان دفعا إلى أن يستكمل ذاته بالعلم ، وهذه الآيات التى ذكرناها وكثر غيرها تلاحق المسلم . الا يهمل جانب العلم فى أى صورة من صورة الصحيحة حتى يرقى بنفسه ويسمو بروحه ويستنير بعقله وقلبه .

ولقد تابع رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج القرآن الكريم فى الحث على طلب العلم وعلى تكريمه أهله وعلى رفعة منازلهم

حتى على العباد والزهاد لأن العلم يؤدى بصاحبة إلى أن يكون من العباد والزهاد ، وإن السعى فى طلب عبادة فى حد ذاته ، وكذلك تعليمه لأهله وطالبيه أما فى حثه على طلب العلم ففى مثل قوله صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » .

رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، رورى الترمذى عن أنس رضى الله عنه ، وقال حديث حسن . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ى من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

وأما فى حثه على نشر العلم وتعليمه للناس فمثل ما رواه الترمذى عن أبى هريره وقال حديث حسن قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الدنيا ملعونه ما فيها الا ذكر الله تعالى وماوالاه (أى طاعته) وعالما ومتعلما ، وما رواه الترمذى عن أبى أمامه رضى الله عنه ، وقال حديث حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أن الله وملائكة وأهل السموات الأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير » .

ويمكن أن نتكتفى فى بيان ما تقدمه عقيدة التوحيد لبناء أبنائها بنيانا أنسانيا سليما خاصة عن طريق تكميلهم بالعلم أن نذكر هذا .

الحديث الجامع الذى رواه والترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يبتغى فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنه ، وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الإرض ، حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دنيارا ولا درهما أنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

والمقصود كل علم دل عليه الشرع أو شرع تعلمه لما فيه من نفع للناس فى شئون الدين والدنيا ويعين على أن تعلو كلمة الله وتسود عقيدة التوحيد ، وتكتمل به نفس الأنسان وترتقى فى مدارج تحقيق الأنسانية فى أكمل صورها وهى تحقيق العبودية الخالصة فى مجال التوحيد .

العقيدة وبناء الإنسان

طابع العقيدة

إن عقيدة لا تفرض على المؤمن بها التزامات وواجبات خاصة وعامة ، عقيدة جوفاء لا معنى لها ، ولا فائدة من ورائها ، بل هى بحكايات العجائز وأقاصيص الأطفال أشبه ، وإن إنسانا يزعم الإيمان بعقيدة ما ، ثم لا يلتزم بما تفرضه عليه - ولو فى الإجمال - من التزامات وواجبات لهو إنسان دعى ، يدعى لنفسه ما ليس لها ، ويصفها بما ليس فيها ، جهلاً ، أو ظناً ووهماً ، أو نفقاً ورياء .

ذلك إن العقيدة فكرة مركزية وجدت عند صاحبها من الثبوت واليقين ما جعلها تستقر فى القلب . وما جعل القلب ينعقد عليها ، فلا ينفك عنها ، وهى بهذا تتمكن فى القلب وتتملكه ، وتتحكم فى جميع ما يرد عليه أو يصدر عنه من أفكار وأحاسيس ، أو مشاعر وعواطف ، أو رغبات وميول ، أو نزعات وإتجاهات .

ولا يمكن - والحالة هذه - أن تتقبل منها ما يخالف حقيقتها ، أو يتعارض مع أساسها ومبادئها ، سواء فيما يرد عليها ، أو فيما يصدر عنها .

وإذا كان المرء فى سلوكه وتصرفاته ، وفى أقوله وأفعاله ، إنما يترجم بصورة أو بأخرى تلك الصورة النفسية الداخلية التى

تنظهما عقيدته وتسيطر عليها ، فإنه بذلك لابد من أن يكون ملتزماً بحكم الفطرة بما تمليه عليه هذه العقيدة من آراء وتصرفات . وعندما يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى تصرف يخالف به ضميره أو يخالف شعوره بداخلى فإنه - لاشك - يشعر بالإضراب النفسى ، ويشعر بعدم الرضا أو الإطمئنان ، ومبعث هذا الشعور بالقلق ، هو ما وجده من فعل يخالف يقينه ويخالف عقيدته ، وكم يتمنى - عندئذ - لو إستطاع أن يمتنع عن هذا التصرف حتى لا يفقد فى نفسه شعور الرضا والإطمئنان .

العقيدة - إذن - إذ صدقت ، فإستقرت فى القلب ، لابد أن تملك على صاحبها جميع أقطاره ، وتتحكم فى مشاعره ووجدانه ، وتوجه حواسه وجوارحه ، وتكيف سلوكه وتصرفاته بالكيفية التى تتطابق معها وتتوافق .

وكم من مرة نبدى تعجبنا من فعل أو تصرف على يد فلان أو فلان ، وعندما نتساءل عن ذلك متعجبين ، يكون الجواب : لأنه يظن كذا ويعتقد كذا ويؤمن بكذا ، فعند ذلك يزول التعجب ، ونعلم أن هذا الفعل أو هذا التصرف إنما جاء مطابقاً لما يظنه ويعتقده . وينتقل سؤالنا ونقاشنا بعد ذلك إلى ما يظنه ويعتقده ان كان صحيحاً أو فاسداً .

وعقيدة التوحيد ، وهى أولى الحقائق وأثبتها ، بل هى أكثر يقيناً وثبوتاً عند أصحابها من ثبوت الحياة ، وهى أثمن وأغلى عندهم من قيمة الحياة ، وإذا كانت بعض العقائد تحكم هذه الحياة الدنيا . فإن عقيدة التوحيد - كما يؤمن بها أهلها - تسرى

فى كل حقيقة من حقائق الدنيا والآخرة ، ولا تنفك عنها حقيقة من الحقائق الكونية ، مدركة أو غير مدركة ، من عالم الغيب أو من عالم الشهادة .

وعقيدة بهذا العمق المحيط ، والشمول التام ، لا تدع فى حياة صاحبها هامشاً يبتعد عن نفوذها ، أو حداً يخرج من سلطانها ، ولابد لصاحبها - إذن - أن تصطبغ حياته كلها - بل ومماته كذلك - بصبغتها ، فى صحوه ومنامه ، فى عمله وراحته ، فى صمته وكلامه ، فى علاقاته ومعملاته .

إن إستسلام المرء لما تمليه عليه عقيدته يصبح تلقائية ، لا تكاد تحتاج إلى التروى أو التدبر ، وإن تروى وتدبر فمن باب الإستيثاق من التوافق والتلائم بين هذه العقيدة وما يصدر عنه من أقوال وأفعال ، وهذا يزيد من شعوره بها وحرصه عليها ، كما يزيد من أحكام الصلة بين حياته العملية ، وحياته الوجدانية الإعتقاديه .

وهذا الموقف لا يوصف بأنه سلبى ، لأنه إنما تم بعد أن مر صاحبه بمراحل متعددة من تفكير ، ومقارنة ، وإستيثاق ، وما كان موقفه منذ بدايته هو موقف الإستسلام التلقائى ، وإنما كان موقف البحث والتأكد ، فإذا وصل إلى مرحلة اليقين والتثبيت فى الأمر الرئيسى ، والفكرة الأساسية ، والعقيدة المبدئية ، لم يصح منه بعد ذلك أن يتردد أو يتشكك فيما يترتب عليها عن قضايا وأفكار ، أو من سلوك وتصرفات وإلا عاد الأمر مرة أخرى للبحث فى صلاحية الأساس والمبدأ ، وتعود الكرة مرة بعد مرة .

فمن طبيعة الأمور إذن إنه حين يستقر الإنسان على عقيدة ، فإنه ينطلق فيما تقتضيه هذه العقيدة بغير تردد أو توقف ،

ويتجنب ما يتعارض معها رغم الإغراءات ، والمزينات ، وهو يفعل ذلك إستسلاماً كما ذكرنا لهذه العقيدة ، وما تمليه عليه ، بصورة تلقائية ، لا تكاد تحتاج إلى شيء من التروى أو التدبر من حيث الصحة أو البطلان .

وإستسلام المرء الموحد لما تمليه عليه عقيدة الوحدانية ، يصبح فى ضوء ماذكرنا مسألة مفهومة ومنطقية ، ولا يحتاج بعد أن نؤمن بعقيدة التوحد أو واجب أو التزام تمليه هذه العقيدة إلا من داخل العقيدة نفسها ، وإلا كان معنى ذلك إننا نعيد بحثنا وتفتيشنا فى صحة هذه العقيدة من جديد .

ولسنا نذهب بعيداً إذا قلنا إن هذه النتيجة المنطقية التى تغرض الإستسلام لمتقضيات العقيدة مادامت قد إستقرت فى القلب ، هى نفسها ما تطلبه عقيدة التوحيد من أصحابها ، وهى الأسم الذى تطلقه تسمية لها وتسمية لأهلها ، إن عقيدة التوحيد هى الإسلام ، وإن أهلها هم المسلمون ، ومن المعانى المقصودة بهذا الأسم « الإسلام » المعنى الذى اشرنا إليه من إستسلام المؤمن بها لمقتضياتها وما تمليه من التزامات وواجبات .

وهذا الأسم قديم قدم الدين ، أو قل قديم قدم الإنسان فهذا سيدنا نوح عليه السلام بقوله لقومه :

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢﴾

– يونس – ٧٢ ، فهذا هو التوحيد وما يستلزمه من إسلام المرء نفسه ووجهه لله رب العالمين ، حيث أمر نوح عليه السلام أن يكون من الموحدين الذين أسلموا لله وجوههم .

وقد قص الله سبحانه وتعالى هذه القصة عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

البقرة – ١٣١ ، ١٣٢ ، فقد أمر إبراهيم كما أمر نوح عليهما السلام بأن يسلم ، فأجاب وأقر بأنه أسلم لله رب العالمين ، ولم يكتف سيدنا إبراهيم بذلك بل وصى بهذه العقيدة وما يلزمها بنيه ، « ووصى بها إبراهيم بنيه » وكذلك فعل يعقوب عليه السلام ، ويعقوب وكانت وصيتهما ما حكاه الله تعالى : « يا بنى إن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .. وكان من حرصهما على إلا سيثاق من إستمرار إسلام الوجه فى أبنائهم ما حكاه الله سبحانه عن يعقوب عليه السلام وكأننا نشهد هذا الموقف الكريم : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

البقرة – ١٣٣ . فهم جميعاً يؤمنون بالوحدانية ، ويقرون على أنفسهم بما يلزمها من إسلام الوجه لله تعالى .

إن الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وإن عبرنا بأنه يلزمه إسلام الوجه له فإن هذا التعبير ليس إلا من باب التقريب ، ولو تمعنا قليلاً لوجدنا إن ترتيب إسلام الله على عقيدة الوحدانية

طريقة التفكير اما من حيث الحقيقة والأمر الواقع فإن عقيدة التوحيد لا تتحقق إلا حين يتحقق إسلام الوجه لله تعالى ، كما إن إسلام الوجه خالصاً لله لا يتم إلا حين تكتمل فى النفس هذه العقيدة ، ومعنى ذلك ، إن التوحيد هو إسلام الوجه لله ، وبدون إسلام الوجه لله فلا توحيد ، ولا إيمان .

وهذا هو مما يعنيه الأمر الإلهى :

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾

الأنبياء – ١٠٨ ، فجعل الإسلام هو الإقرار بالوحدانية وجعل الإقرار بالوحدانية هى الإسلام ، فالتوجيد إسلام ، والإسلام توحيد .

ويظهر ذلك جلياً فى قوله تعالى وهو يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بوضع حد فاصل بينه وبين أهل الكتاب « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله تولوا فقولوا أشهدوا بأن مسلمون » أل عمران – ٦٤ ، وكأنه قال : أشهدوا بأنا موحدون غير مشركين .

وهذا الإسلام هو الذى وضعه الله فى مقابلة أديان أهل الكتاب حيث قال فى القرآن الكريم :

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ -

البقرة – ١١١ – ١١٢ ، فلتوحيد وهو معنى إسلام الوجه لله ، هو الذى يرد به الله تعالى على دعوى اليهود والنصارى ان الجنة من حقهم ، لا من حق المسلمين ، مع إن دعوى اليهودية أو دعوى النصرانية تنتسب وتتميز بأمور غير الهية ، حيث تقتصر اليهودية على شعب معين ، وتنسب النصرانية إلى مكان معين ، أما الإسلام فهو توحيد الله ، والإستسلام الكامل له ، ومن مقتضيات ذلك أن يكون أجره عند ربه ، وأن تكون الجنة من نصيبه بمنطوق لفظه ومعناه ، أما هم فلا برهان لهم على دعواهم ولذلك طالبهم الله تعالى به

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ولقد نجد هذا المعنى يتكرر فى القرآن الكريم حتى يتأكد ويرسخ فى الإفهام والقلوب ذلك مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

لقمان – ٢٢ ، ويتساءل مقرراً إن إسلام الوجه لله هو حقيقة الدين فيقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

النساء – ١٢٥ ، بل يصف الدين بأنه هو الإسلام ، وإن ما عداه فليس بدين على الحقيقة فيقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ ﴾

آل عمران – ١٩ ، ولهذا فإن الله لا يقبل غيره وإن تسمى باسم الدين ،

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

آل عمران – ٨٥ .

ويمكن فهم هذه الحقيقة إذا أدركنا إن حقيقة الدين فى أن ندين الله سبحانه وتعالى بما يديننا به ، وهذا هو حقيقة معنى إسلام الوجه لله ، وأننا إذا لم نسلم وجوهنا لله ، فإننا لا ندين له ، ومن هنا ينتفى معنى الدين ، فالدين هو فى الإسلام لا فى غيره ، والإسلام هو الدين ، وصدق قوله تعالى :

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وحق له الا يقبل غيره دينا

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

ولعله مما يحتاج إلى شىء من البيان أن نذكر أن معنى إسلام الوجه لله تعالى يتضمن إن يكون الإنسان المسلم مستسلماً لربه بكليته ، فلا يكون له فى ذاته ، ولا فى شىء ، مما يتعلق به ما يخرج عن دائرة الإستسلام لله تعالى ، إنه يستسلم لله تعالى فى كل ما يراه به ، أو ينهاه عنه ، إنه يستسلم له فى إرادته ومشيئته ، إنه يستسلم له فى قضائه وقدره ، إنه يستسلم له فى كل أخباره وتقريراته . وحكمه وعظاته . إنه يأخذ ذلك كله مأخذ التسليم والإمتثال ، فيقبل على تنفيذ ما أمر . وينصرف عما نهى ويصبر على ما فى قضائه من بلاء . كما يشكر ما فى قضائه من عطاء ، ويكون فكره ونظره فى الأمور مرتبطاً بهذا التسليم لله ، فلا يأخذ حين يأخذ إلا وهو حاضر بين يدى الله ، ولا يعطى حين يعطى إلا وهو ينظر إلى مرضاة الله ، وهكذا فى كل شأن من شؤنه . ومن شئون الحياة . وهو فى خلال ذلك يربط دنياه

بآخراه . فهو يعلم إنه كما ان مبدأه من الله . فإن إلى الله تعالى مردهومنتهاه .

وقد ذكرنا إن العقيدة لابد من أن تفرض على المؤمن بها التزامات وواجبات خاصة وعامة ، وعقيدة التوحيد تفرض هذه الالتزامات فى جميع شئون الحياة فلا تترك فيها مجالاً إلا وتحدد فيه منهجاً ومسلكاً توحيدياً ترتبط بالله ، ويؤكد معنى الإستسلام لله ، وتضيف إلى ذلك صوراً واقعية تعيد تذكير الإنسان بهذه الحقيقة كلما إستغرقته مختلف الأحداث والتصرفات وذلك عن طريق الفروض والواجبات المرتبطة مرة بالمواقيت الزمنية كالصلاة ، ومرة بالمواقيت المكانية كالحج ، ومرة بالتضحية البدنية كالصيام ، وأخرى بالتضحية المادية كالصدقة والزكاة إلى غير ذلك من الوسائل التى تظل تذكر الإنسان بحقيقة التوحيد ، فتستقيم نفسه فكراً وشعوراً ووجداناً ، وتستقيم حياته عملاً وقولاً وسلوكاً ، وتدهور جميعها حول محور واحد يسلكها فى عقده ، وفى إطار واحد يجمعها فى عهده ، وبذلك تصان للنفس وحدتها ، وتحفظ عليها سلامتها ، ويستقيم لها طريقها ، وتتحدد أمامها غايتها ، وتستنير من حولها جوانبها ، وتظهر للموحد حقيقة التوحيد سارية – كما ذكرنا – فى كل مشاهداته فى هذا الكون

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

الزمر – ٢٢ . بل تظهر له حقائق الغيب فى الآخرة كما ذكرها الله تعالى وبينها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، فتكون حياته بجميع مافيها ، ومماته بكل ما يتبعه خالصاً لله سبحانه وتعالى .

سلماً لله رب العالمين ، وأسوتنا وقدوتنا وأولنا فى الإسلام لله هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله بقوله :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾

الأنعام ١٦٢ – ١٦٣

هذا الإسلام الخالص الذى يشمل كل شىء فى الإنسان ويبنى فيه نفساً موحدة غير ممزقة بين مختلف الأفكار والآراء والتيارات ، وتضعه فى طريق مستقيم برىء من الإنحرافات والمنحنيات ، وتسلك به فى منهج واضح القسمات والسمات ، سليم العلاقات والتصرفات ، بعيد عن الحيرة والتشكيكات ، ليس مرتبطاً بالأشكال الظاهرة وحدها ، ولكنه يرتكز على ما وراءها فى أعمق النفس والوجدان ، والقلب والشعور .

فكلما سلمت العقيدة فى نفس الإنسان ، كان ذلك إدعى إلى إخلاص النية ، وإلى تسليم النفس بالكلية ، أما إذا خولطت هذه العقيدة بشىء من الهوى ، أو بشىء من الذاتية والأنانية ، أو حجبها عن التأثير والفاعلية حجاب من الشهوات والميول ، فإن مظاهر التسليم لا تكفى ، إن إسلام الوجه لله مالم يرتكز على نية خالصة ، وعقيدة واضحة ثابتة مسيطرة ، فإنه يكون إسلاماً مدخولاً ، وتكون شخصية صاحبه مهتزة مترددة ، وبناؤها متصدعاً مضطرباً ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾

الزمر - ٣ ، ويصف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الخلوص وهذا الشوب فى النوايا بمثل قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينجحها فهجرته إلى مهاجر إليه » متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه ويسلم عليه وسلم عن الإسلام فيما رواه الأمام أحمد عن عمرو بن عبسة قال : قال رجل يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « إن يسلم لله قلبك ... » .

وإذا كانت عقيدة التوحيد تبنى فى المؤمن تلك الشخصية الخالصة فى إستسلامها لله سبحانه وتعالى ، فإن معنى ذلك ألا يحتكم المؤمن فى شىء من شئونه إلى غير الله وتعالى ، وما بينه ورسوله صلى الله عليه سلم .

ومعنى ذلك أن يلتزم التزاماً كاملاً بكل ماجاء عن ربه على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإيراد الإحتمالات ، وتطبيق مقاييسه الدنيوية أو العقلية ، ليقبل أو ليرفض وإنما عليه إن يطبق مثل هذه المقاييس ليفهم ويتبع ، لا ليناقش ويبتدع ، : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

الأنعام - ١٠٦ ، ومن ترك الإتباع لما أوحى من الله ، وحال إلى الإبتداع من عند عقله فقد جاء عن منهج إسلام الوجه لله، وإستأثر لنفسه بحق المناقشة والمخالفة ، وهذا مناقض لموقف العقيدة ، هادم لمعناه كما بيناه منذ البداية ، إنه ما دامت العقيدة

قد ثبتت وإستقرت لزم على ذلك إتباع كل ما تمليه وتقتضيه بحث ولا مناقشة الا من حيث الفهم وكيفية التطبيق ، أما البحث من حيث الصحة والفساد فإنه يسرى إلى أصل العقيدة ، وأولى بذلك أن نعرض إلى تمحيص العقيدة من جديد ، بدلاً من إنفاق الوقت والأعمار فى مناقشة الفروع وترك الأصول . .

وهكذا نجد أن طابع العقيدة فى الإسلام يقتضى من المسلم شخصية سوية متكاملة ، موحدة النفس والفكر والسلوك ، متزنة العلاقات والتصرفات ، مستسلمة لأمر الله فى شئون منهج الإتباع للوحى (الكتاب والسنة) وتلفظ مناهج المبتدعين و الدنيا وشئون الأخرة . تتهج ما يزخرفونه بأهوائهم من ترهات وأباطيل .

العقيدة وبناء الإنسان
فطرية العبادة

حين ينتشى المرء برائحة الورد ، ويستروح عطر الفل والياسمين ، ويملأ خياشيمه شذى الرياحين ، فإنه لا يلبث حتى تظهر نشوته تلك ، وهى تعبر عن نفسها ، فى صورة صيحة إستطلاف ، أو شهقة إستنشاق طويلة وعميقة ، يمتع بها نفسه بذلك العبق الجميل .

وعندما تجتلى صفحة السماء فى ليلة صافية مقمرة ، وقد تلألأت مصابيحها ، وإزادانت كواكبها ، وتناثرت على إمتداد البصر فى أعماق بعيدة ، كأنما تريد أن تطوى عنا أسوارها ، وتسدل دوننا إستارها ، أو كأنما تريد أن تنتزع منا نحن أسرارنا ، وتهمك من أعماقنا ، أستارنا فإنها تأخذنا بروعتها ، وتحيط بنا بهيبتها ، ونجلس أمامها صامتين ، ساهمين ، مشدوهين ، قد إمتلأت جوانحنا بعظمتها البادية ، وإنداحت أفكارنا فى أعماقها الخافية ، فى صورة معبرة عما تجيش به نفوسنا من روع وإنبهار .

وتطوف بنا الخيالات والأفكار لتجوب مختلف المشاهد والمواقف التى تمر بنا أو تمر بالآخرين ، سواء فى أحوال الرضا ، أو أحوال الغضب ، وسواء فى مشاعر الإعجاب أو

مشاعر العجب ، وكيف تظهر صورة هذه الإنفعالات المختلفة فى لفتة لطيفة ، أو حركة عنيفة ، فى بسمة عريضة ، أو نظرة مريضة ، فى نهضة شامخة ، أو جلسة مريضة راضخة ، إلى غير ذلك من التعبيرات اللفظية والعملية ، وهى جميعها تظهر بطريقة عفوية ، تلقائية ، مالم يقصد صاحبها إخفاءها ، أو تمويهها على الآخرين .

إن الإنفعالات التى تجيش بها نفس الإنسان ، تلتمس دائماً أن تفصح عن نفسها ، وتعبر عن ذاتها بمختلف أنواع التعبير التى تتفق مع طبيعتها ، وتأخذ مجراها من خلال العلاقات التى تتجه نحوها أو تطوف حولها .

وعندما يستوفى الإنفعال صورة التعبير اللازمة له ، فإن صاحبه يشعر بالإرتياح والهدوء ، ويأنس بالطمأنينة والسعادة ، ويسلم بذلك بنيانه النفسى ، والعضوى أيضاً .

وإذا لم يتمكن الإنسان من التعبير عن إنفعاله بالصورة المناسبة والمطابقة لإنفعاله قوة وضعفاً ، لمانع خارجى ، أو لأمر يقدره فى نفسه ، له إعتباره الداخلى فانه يظل قلقاً مضطرباً يلتمس وسيلة للتعبير عن إنفعاله ، ولو بصورة مستترة .

تلك فطرة إنسانية ، لا يختلف فيها إنسان عن إنسان ، ولا طائفة عن طائفة اللهم إلا فى إسلوب التعبير عنها ، ومدى ما تعرض له من تهذيب وتقويم ، وترتيب وتنظيم .

وحينما يمتلىء قلب الإنسان بعقيدة ، فإنه يكون من الواضح - بناء على هذه الفطرة - أن يجد وسيلة للتعبير عنها فى حياته

الواقعية والعملية ، وإلا لم تكن هذه العقيدة على المستوى الذى تبلغه إنفعالاته الأخرى ، حيث تحتاج هذه الإنفعالات إلى التعبير عنها فى صورة عملية واقعية ، بينما تنزوى فكرة أو نوع من أنواع التأمل أو الخيال .

وليست العقيدة نوعاً من أنواع التأمل أو الخيال ، كما أنها ليست مجرد فكرة جامدة يسبح حولها العقل ، ويقيم منها نظرية فلسفية ، يقتنع بها أو لا يقتنع ، فمثل ذلك لا يدخل من باب الإعتقاد ، وإن وصل إلى حد الإقتناع الفكرى والعقلى ، وكم من فلاسفة ومفكرين يقتنعون بفكرة أو نظرية ، ولكنهم لا يتأثرون بها شعورياً ولا وجدانيا ، ولا تأخذ مجراها فى نفوسهم ، إلا فى حدود التأمل العقلى والفكرى ، ويخلطون بين الإعتقاد القلبى والإقتناع العقلى ، فيظنون إنهم ماداموا قد إقتنعوا بالفكرة عقلياً فقد إعتقدوها ، ويزعمون إنهم آمنوا بها ، وليس الأمر كذلك فالإمتناع شىء ، والإعتقاد والإيمان شىء آخر ، نعم قد يكون الإقتناع مقدمة للإعتقاد ، وللإيمان ، إذا أخذ مجراه من العقل إلى القلب ، ومن الفكر إلى العاطفة والوجدان ، ومن مجرد التأمل البارد المستكين ، إلى حرارة الإنفعال وحركته الجياشة ، عندئذ تصبح الفكرة عقيدة تتمكن من عقله وقلبه ، وتتحكم فى عواطفه ووجدانه ، وتثير مشاعره وإنفعالاته وتوجه حركته ونشاطه .

وبهذا تسلم للمرء بنيته الإنسانية ، حيث يمتلىء قلبه بالعقيدة والإيمان ، وتعبر جوارحه بطريقة تلقائية عن هذه العقيدة تعبيراً صحيحاً ، ومالم يتم شىء من ذلك ، كان قلب الإنسان هواء ، وشعور هباء ، وسلوكه ضياعاً وخواء .

ولا يمكن أن يتحقق مثل هذا التكامل فى بينة الإنسان كما نحققه له عقيدة التوحيد ، إنها عقيدة تأخذ على الإنسان – كما ذكرنا – جميع الأقطار ، وتشغل فكره ووجدانه إناء الليل وأطراف النهار ، وهى لذلك لابد من أن تعبر عن نفسها بصورة عملية تتطابق مع جوهرها وحقيقتها ، هذا الجوهر وهذه الحقيقة التى تعبر عنها كلمة التوحيد ، ولا توجد فى حياة الإنسان فكرة أو حركة إلا ولهذه العقيدة فيها مظهر يعبر عنها ، وفقاً لقوتها وضعفها ، ومدى سيطرتها وتحكمها فى نفس صاحبها .

إلا إن هناك مظاهر معينة تتركز فيها هذه الضورة من التعبير عن عقيدة التوحيد ، هذه المظاهر هى التى يطلق عليها إصطلاح العبادة ، وهو إصطلاح يطلق أولياً على أركان الإسلام التى عبر عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما : بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسول ، وإقام الصلاة ، وإتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان ، كما يطلق إطلاقاً ثانوياً على كل عمل يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى على وفق ما أمر الله ، وسن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نجد أن عقيدة التوحيد تدبر الوسيلة التى تعبر بها عن نفسها ، وتكمل بذلك بناء الشخصية السوية المستقيمة التى يستقيم ظاهرها ، مع ما تكنه فى جوانحها ، ويتبلور ذلك فى العبادات العملية من صلاة وصيام ، وحج وزكاة ، وقد فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده ، لتكون تعبيراً صحيحاً عن هذه

العقيدة ، مطابقاً لجوهرها وحقيقتها ، وبعيداً عن أن تكون مجالاً للأهواء أو للتصرفات الفردية أو الشخصية ، ولا يفهم من ذلك أن تكون هذه الفروض هى كل التعبير المسموح به للإنسان لكى يعبر به عن عقيدته فى توحيد الله سبحانه وتعالى ، ولكن هذه الفروض هى الحد الأدنى لهذه التعبير الذى يستجيب لمتطلبات المرء فى التعبير عن عقيدته ، ومع ذلك فباب التعبير عنها بأكثر من هذه الفروض مفتوح تبعاً لعمق العقيدة فى النفس ودرجة إقبال العبد على ربه بناء على درجة تشبعه بها وإنغماسه فيها وما تغرسه فى القلب من حب الله ورسوله .

إنه يمكن للمرء أن يستزيد من هذه العبادة عن طريق النوافل التى يؤديها من جنس هذه الفروض ، فشهادة التوحيد ذكر ، وباب الذكر مفتوح لا يمتنع عند إرادته فى أى وقت من ليل أو نهار ، ومن ذلك شهادة الرسالة لسيدنا محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بالإكثار من الصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه وتابعيه ، والصلاة سننها ونوافلها ، ومنها التهجد فى جوف الليل والناس نيام ، حيث يعبر الإنسان عن توحيده وعبوديته لربه بمناجاته والتضرع إليه ، وبسط اليدين بالرجاء والدعاء مع ملء الخشية والخضوع ، والصيام وما يتبعه من صيام عن اللغو والعبث ، والزكاة وما يمت إليها من صدقة بالمال والقوة والجاه واليد والصناع ، وهذه النوافل مباحة للمستزيد منها ، ولا يمنعه منها إلا حدود طاقته البشرية ، أو حدود العقيدة وعمقها فى نفسه ، ومدى سيطرتها على مشاعره وجوارحه .

والعبادة - إذن - هى التعبير الفطرى عن إنفعال النفس الإنسانية بحب خالقها ، وبعمق إيمانها بتوحيده ، ولما كانت هذه العقيدة تملأ على نفس المؤمن أقطارها فلا غرو أنه يحتاج إلى التعبير عنها فى كل حركاته وسكناته ، وفى كل أفعاله وتصرفاته ، لهذا لم يكتف الإسلام بفروض العبادات ، ولكنه فتح باب النوافل ، ليستكثر الإنسان منها بحسب حاجته إلى التعبير بها ، بل لقد من الله على عباده المؤمنين ، فلم يجعل عبادته مقصورة على هذه الفروض ، وما هو من جنسها من النوافل ، بل جعل الحياة كلها فى جميع أشكالها ، وجميع مفاهيمها خاضعة لمعنى العبادات ، مادامت مرتبطة بجوهر العقيدة ، ذلك أن كل قول أو عمل ، أو سلوك أو تصرف يتم وقد أراد به صاحبه وجه الله سبحانه وتعالى ، فإنه يكون تعبيراً صادقاً عن العقيدة ويصبح نوعاً من أنواع العبادة ، بشرط إلا يخالف به حكماً شرعياً ، أو سنة نبوية قولية أو فعلية ، بالجملة ، فكل ما يأتيه الإنسان أو يدعه يمكن أن يصبح عبادة معبرة عن عقيدته ، إذا توافر فيها أمران :

١ - الإخلاص .

٢ - الإتباع ، والمقصود بالإخلاص إلا يريد بها صاحبها إلا وجه الله سبحانه وتعالى ، والمراد بالإتباع أن يؤديها وفقاً لتعاليم الكتاب والسنة .

وهكذا تلتقى الفطرة مع الإسلام ، ففطرة الإنسان تقتضيه أن يعبر عن عقيدته بما يناسب قوة إيمانه وإنفعاله بهذا الإيمان ، وبما يناسب عمق عقيدته ومدى شمولها لجوانب الحياة ، والعبادة

التى نظمها الإسلام تتطابق مع هذه الفطرة تماماً فتفسح لها باب التعبير وفقاً لدرجة قوتها وعمقها وشمولها ومبتدئه بالفرائض المعروفة ، ومتدرجة فى باب النوافل إلى أن تصبح الحياة كلها بجميع مافيها من أنواع النشاط الإنسانى عبادة خالصة لله تعبر تعبيراً صحيحاً وطابقاً لعقيدة التوحيد .

فالحديث الشريف يصف الهجرة بأحد أمرين ، أن يريد صاحبها وجه الله ورسوله وعندئذ تكون هذه الهجرة عبادة ، غير عبادة الصلاة والصيام والزكاة والحج - أو أن يريد بها صاحبها دنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها ، وحينئذ تكون هذه الهجرة عملاً دنيوياً لا يدخل فى باب العبادة .

وهكذا الأمر بالنسبة لجميع الأعمال التى ضربت الهجرة فى هذا الحديث الشريف مثلاً له ، حتى تلك الأمور التى يظن الإنسان أنها موغلة فى الأغراض الدنيوية كتناول الطاعام ، وإستراحة القيلولة ، وأخذ قسط من النوم الضرورى وغير ذلك من الأمور المشابهة .

يروى الإمام مسلم رضى الله عنه عن أبى ذر رضى الله عنه أن ناسا قالوا يارسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصمون كما نصوم ، ويتصدقون بفضل أموالهم ، يصدقون أنة لا مال لنا لنتصدق به مثلهم ، قال أو ليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة ،

قالوا : يارسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجراً ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام ، أكان عليه وزر ؟ ! فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر .

أرأينا – إذن – كيف أن كل شىء فى حياة الإنسان يمكن أن يصبح بمقتضى النية عبادة تعبر عن جوهر العقيدة ، فتؤدى حق الله ، وتتجاوب مع الفطرة البشرية ، فترضى إنفعالاتها بما يتناسب مع حسن توجيهها ، وسلامة البنية النفسية والشخصية .

إن كل شىء يقوم به الإنسان إذا أراده بإسم الله ، فإنه يعبر به عن عقيدته ، ويصبح بذلك عبادة على قدر ما فيه من إخلاص ، وما يتصف به من إتباع للكتاب ، والسنة ، وكل شيئ يغفل فيه الإنسان عن ذكر الله فإنه يكون بذلك قد غفل عن عقيدته ، ولم يكن فى فعله ذلك معبراً عنها ، ولا متوجها إلى الله فيها بالعبادة ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

الأنعام (١٢١) . والمقصود بذلك أن تصطبغ حياة المؤمن بعقيدة التوحيد صبغة كاملة ، لتصبح كلها باسم الله ، وتصبح كلها تعبيراً عن توحيد الله ، فتصبح كلها عبادة خالصة لله ، وتستقيم

بذلك حياة الإنسان وبناؤه الشخصى حيث يتطابق ظاهره مع باطنه ، ويتوافق سلوكه مع عقيدته .

وفى ضوء ذلك نستطيع أن نفهم شيئاً ما من مثل قول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

الأنعام (١٦٢) ، حيث يمكن أن نرى أن هذه الأية لم تترك شيئاً من الإنسان إلا وأسلمته لله ، وجعلته خالصاً لله وحده لا شريك له ، فهذه عقيدة التوحيد تسيطر على كل ما يتعلق بالمؤمن فى حياته ، بل فى مماته – كما سبق أن أشرنا .

وبالجملة فمن كانت جملة حياته فى سبيل الله كان ذلك تعبيراً عن عقديته قوية تجعله أقرب إلى الله سبحانه وتعالى حتى يصبح المؤمن فى درجة من القرب إلى الله عنها هذا الحديث الرائع فيما رواه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن الله سبحانه وتعالى ، أنه قال : من عادى لى ولياً فقد أذنته بالحرب ، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما إفترضت عليه ، ولا يزال عبدى يقترب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن إستعاذنى لأعيذنه . وأولياء الله تعالى هم الذين يقول الله عنهم :

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الأنفال / ٣٤ ، ويقول عنهم :

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝﴾

يونس ٦٢ / ٦٣ ، وهى آيات كريمة تشعر بأن التقوى كانت من دأب هؤلاء الأولياء فى جميع أحولهم ونواحى سلوكهم وتصرفاتهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يصوم حتى يقول الصحابة لا يفطر ، وكان صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يعارضه جبريل عليه السلام القرآن فرسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ أجود بالخيرمن الريح المرسلة ، وهكذا فى سائر أنواع العبادة ، وسائر الوان السلوك . وعندما يستقيم المرء مع فطرته ، فيوجد الله ربه ، ويعبر عن ذلك بما تقتضيه فطرته من العبادة ، مخلصا بها لله ، متبعا فى أدائها تعاليم القرآن ، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام مستزيدا من هذا العبادة عن طريق النوافل مرة ، وعن طريق توجيه حياته وجميع أنواع نشاطه فيها إلى الله ورسوله مرة ، فأنه ينعم بها يدل عليه هذا الحديث القدسى الذى رواه البخارى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : إذا تقرب العبد إلىَّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، وأذا تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة » وينعم بما فى قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝﴾

فصلت / ٣٠ - ٣٢ .

العقيدة وبناء الأنسان
تواصل العقيدة

أذا خلا من عقيدة فأنه يكون أنسانا على أكبر درجة من الأنانية المفرطة ، التى لا مكان فيها لأحد معه ، ذلك لأنه حتى وهو يعمل- فيما يبدو - من أجل الآخرين . لا ينظر إلى أنه يعمل من أجل الآخرين ، وأنما ينظر إلى ما يعود عليه هو من وراء هذا العمل و وإلى أضطراره لتقديم هذا العمل للآخرين ، لأنه لو لم يعمله لم يستطيع تحصيل ما يرغب فى تحصيلة ، ولو لم يكن مضطرا فلماذا يعمل ؟ ولمن العمل ؟ وما الذى يدفعه لكى يقوم بهذا العمل ؟ أنه لا يجد فى نفسه دافعا يدفعه لأداءهذا العمل لأمن مبدأ يعتنقه ، ولامن عقيدة يؤمن بها ، فأذا كان هذا العمل لا يعود عليه هو شخصيا بشىء يرغب فيه ، فلمن يعمله ؟ أن كان للآخرين ، فليس هناك ما يربطه بهم ، لأنه خالى الفكر والقلب من هذه الروابط ، حتى من رباط الأنسانية ، ولو أنه آمن ولو مبدأ الأنسانية لأصبحت فكرة الأنسانية عنده عقيدة بصورة ما - تربطه بالآخرين ، لكن أن يكون خاليا من عقيدة فأن ذلك معناه أن يكون خاليا من معنى الأنسانية ، ولذلك وضعنا لفظ أنسانا فى مطلع هذا الحديث بين قوسين ، لمعرفتنا أن من خلا من العقيدة خلا كذلك من الأنسانية ، ولو لا أحتياجه وضرورته الملجئة لما يعود عليه من العمل لما عمل ما يعود على الآخرين بشىء .

ولعلنا نلتمس مثل هذا المعنى فى تلك الجماعات المنكوبة التى حاولت تفريغ عقول شعوبها وقلوبهم وعواطفهم من معنى العقيدة ، ثم إرادت منهم – مع ذلك أن يكونوا خدما لمجتمعاتهم ، فماذا كانت النتيجة .. لم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى شىء من ذلك إلا عن طريق القهر والضغط والأرهاب الفكرى والعلمى ، الفردى والجماعى ، ولم يحصلوا بعد ذلك على طائل يذكر . وكان إلحادهم سبباً فى خذلانهم ، فماذا يفعلون .. جعلوا الإلحاد – الرافض عندهم للعقائد المختلفة – عقيدة ، وسموه فى سوق شعوبهم بأسم العقيدة ، حتى يخدعوا الجماهير عن زلت نفوسهم ، وجعلوا يطلقون على من يعتنق الإلحاد منهم أسم : أنسان عقائدى ، من تسمية الشىء بضده ، يوهمون الناس – بذلك أنهم يقدمون لهم عقيدة ، وكيف تكون عقيدة المرء الاَّ يؤمن بعقيدة .. أفهذه عقيدة لقوم يعقلون .. لكن هكذا شاءوا ، وقدموا لهم نظريات فلسفية ، وأجراءات قانونية وعملية ، على زعم أن تلك من عقائدهم ، وما هكذا عرف الناس العقائد ، ولا هكذا يقتنعون أو يعترفون بها .

وقد رأينا هذه الأيام كيف أنهارت هذه العقيدة الألحادية ، أو الألحاد فى العقيدة ، وكيف أنهار معبدها وقعلتها الأساسية ، وكيف بدأ سدنتها وكهانها يتساقطون أسرع من تساقط أوراق الخريف بمجرد أن وجد الأنسان عندهم متنفسا يعبر عن نفسه وعن حقيقة مشاعره تجاه العقيدة الموهومة ، فعبر عن أعتقاده بأن هذه العقيدة ليست فاسدة وباطلة فحسب ، ولكنها لم تكن عقيدة من حال الأصل . ومع ذلك فأن سدنتهم يحاولون أن يتشبثوا ببقايا

هيهات تحفظ عليهم ماء وجوههم ، ريثما يحددون لأنفسهم أتجاها بعد أن خرجوا من التيه الذى كانوا فيه ، فهم يحتاجون إلى بعض الوقت كى تستقر أقدامهم على معالم طريق جديد يسيرون فيه .

هكذا يبرهن الواقع العملى على أن الأنسان لا يستقر بغير عقيدة ، وأنه أذا أجبر على أن يسلك فى حياته متخليا عن عقيدته ، فأنه يتجه إلى نوع من الأنانية العارمة التى تدفعه الأنعزاليةوالتهاون واللأمبالاة ، والشعور بالغربة وعدم الأنتماء وتدفعه أحيانا إلى الرغبة فى الأنتقام من المجتمع الذى فرض عليه هذه الغربة والأنعزالية النفسية ، حيث لم يجد فى نفسه ، ولا فى نفوس الأفراد فى مجتمعه يمكن أن يجمع بينه وبينهم نفسيا ، نعم قد يجد ما يجمعه بهم فى وسائل اللهو والترفيه ، وفيما يسمى أحيانا باسم الفنون أو غيرها من الأسماء ، لكن كل هذه الوسائل والأساليب تظل مجرد وسائل لشغل الوقت ، ولا تبلغ أعماق النفس ، ولا تشبع أشواق الروح ، لهذا يظل هذا الأنسان الخالى من هذه العقائد غريبا فى أعماق ، لا يجد بينه وبين مجتمعه رابطة نفسية تعزز الروابط المادية والبدنية فلا غرو لا يرى فى هذا المجتمع شيئا من نفسه ، لهذا تأتى الأنانية والأنعزالية والشعور بعدم الأنتماء .

فلا أمتلأت نفس الأنسان بعقيدة ، أمنت وآمنت ، وأطمأنت وتطامنت ، وشعرت برابطة تربطها بالوجود رابطة متصله بأعماق النفس لا مجرد رابطة الطعام والشراب واللهو واللعب ، وهى رابطة عامة تظل تظهر وتقوى كلما ضاق نطاقها لترابطه بمجتمعه

العام فى شعبه أو مدننته أو عمله ، أو بمجتمعه الخاص فى أهله وأسرته واولاده ، وهو شعور يجعل المرء يرى غيره ، كما يرى نفسه ، ويعترف بوجود الآخرين معه ، سواء شاركوه عقيدته ووجدانه ، أم خالفوه فيما يعتقد ويرى ، فأذا أتفق البعض معه فى العقيدة كان بلا شك عاملا فى تقوية هذه الرابطة وفى زيادة متانتها وثباتها .

وبهذا يظهر أن أنعدام العقيدة فى مجتمع من المجتمعات يؤذن بتفككه وأنحلاله وأشتغال كل فرد بنفسه ، وأشتغال كل مجموعه مما يمكن أن نسميها مجموعات المصالح بها يشغلها من هذه المصالح التى تشبع ، لأنها لا تروى ظما النفس ولا غلة الروح ، وأن وجود العقيدة فى مجتمع من المجتمعات يؤذن بترابطه وتماسكه ، وأشتغال كل فرد بما ينفعه وينفع مجتمعه ، أو أشتغاله داخل مجموعته بخدمة عامة تعود عليه كما تعود على مجتمعه بالخير والنفع العام ، حيث يرى فى ذلك صورة نفسه ، وثمرة وجوده وجهده .

وأذا كان ذلك هو فعل العقيدة فى نفس الفرد بالنسبة لمجتمعه الذى يعيش فيه ، فلا شك أن هذا الأثر يتضاعف ، عندما تكون عقيدته هى العقيدة السائدة فى هذا المجتمع لأن العقيدة ، الواحدة توحد وجهة النظر ، وتوجد مبدأ النشاط الأنسانى ، وتحدد له وجهته وغايته ، فيتم النشاط العام ي المجتمع بصورة متناسقة متكاملة ، خالية من التناقضات والأضطربات ، وكثيرا ما ينتج عن ذلك شعور بالأمن والهدوء ، والرضا والأضمئنان ، خاصة أذا كانت أصول هذه العقيدة السائدة فى المجتمع موثوقه

الأصول ، صحيحة المبادىء ، يقينيه القواعد والغايات سليمة الأساليب والوسائل .

وعقيدتنا – التى هى محور حديثنا – وهى عقيدة التوحيد من أكثر العقائد (دنياميكية) وحيوية لأنها إلهيه فى مبدئها وغايتها ، عالمية فى دعوتها ، عامة فى مبادئها ، أنسانية فى أساليبها ووسائلها كونية فى مشاعرها وعواطفها ، فلا جرم يشعر أنسان هذه العقيدة بتلك الرابطــة التى تربطه بالله الأحد الصمد من جانب ، والتى تربطه بكل عناصر الكون من جانب آخر ، رابطة فيها من المؤدة والصفاء والألفة والسماحة ، ما يعرفه هؤلاء الذين خالطت بشاشة الأيمان قلوبهم ، ودخلت أفئدتم ومست منهم الشغاف .

ومن هذا المنطلق يكون حرص المرء على عقيدته فى نفسه من جانب وفى مجتمعه من جانب آخر وهو يحرص على هذه العقيدة فى مجتمعه بنفس القدر والقوة التى يكون بها حريصا على عقيدته فى نفسه ، لشعوره بتلك الوحدة فى العقيدة التى تجمعه مع مجتمعه فى أطار واحد ، ولمعرفته بأن يصيب عقيدته فى نفسه لابد أن يكون له تأثيره فى مجتمعه ، وما يصيب العقيدة المشتركة فى مجتمعه لابد أن يترك أثره عليه فى نفسه .

هذا الحرص أذن يدفع المرء دفعا لكى يتبادل مع شركاء العقيدة ف المجتمع الأخلاص والنصيحه الممتزجه بروح المحبة والمودة والرغبة فى شيوع الخير وأنتشار السلام ، يقول الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

فالتواصى فى مجتمعه المؤمنين قائم على أساس العمل الصالح والتعاون على البر والتقوى وتبادل النصيحة بالحق مع التمسك فى ذلك كله بالصبر ، ولقد مدح الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝ ﴾

آل عمران / ١٥٩ .

ومن أهم أسباب التواصل فى أبناء عقيدة التوحيد، هى هذه الرغبة الصادقة فى سلامه المجتمع والتزامه بالعقيدة وما تقضيه من أحكام ونظام عام ، وقواعد سلوكيه ، وأداب أجتماعه وأنسانية والشعور بأن التفريط فيها أو الأهمال فى أدائها بما ينقص من حقوقها سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعه كفيل بأن يقوض دعائم هذا المجتمع ، وأن تعود آثار هذا التفريط والأهمال حتى على هؤلاء الذين لم يفرطوا أو يهملوا . لهذا توجب هذه العقيدة على أصحابها أن يصبح كل منهم حريصا وحارسا لأخيه ، وحريصا وحارسا لمجتمعه ، فيمنع وقوع المخالفات ، ويعمل على التزام المبادىء ، والقواعد والترتيبات العملية والسلوكية

ويبذل فى ذلك قصارى جهده ، وغاية وسعه ، حتى يضمن السلامة لنفسه ولمجتمعه فى ظل عقيدة التوحيد المشتركة بينه وبينهم .

ولننظر إلى هذا التصوير والتمثيل النبوى الشريف لمثل هذا الموقف فى المجتمع ، يروى البخارى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم أستهموا على سفينه فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها أذا أستقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا . فأن تركوهم وما أرادو هلكوا جميعا ، وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا . فعقيدة التوحيد تصل ما بين أهلها جميعا ، وتجعلهم يشعورن بتلك الرابطة التى تجمعهم وأن الجميع مسئول عن سلامة هذه العقيدة لدى الجميع ، وعليه أن يتخذ كل ما يراه مناسبا للمحافظة على دينه وعقيدته ، وسلامة دينه وعقيدته فى خاصة نفسه وفى مجتمعه الذى يعيش فيه .

ولهذا كانت قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من مقضيات الصلة التى تقيمها عقيدة التوحيد بين أتباعها ، بحيث يكون القيام بهذا العمل قياما بواجب الأخوة ، وبواجب التواصل الذى تفرضه العقيدة فيما بيننا .

ولقد روى أبن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتما من ذهب فى يد رجل فنزعه وطرحه ، وقال : يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها فى يده ، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ خاتمك أنتفع به ،

قال : لا والله لا أخذه أبدا وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكلما قويت العقيدة وتحكمت في قلب أهلها كانت هذه الصلة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتبادل للنصيحة أقوى وأظهر ، والعكس كذلك ، ولقد وصف الله سبحانه وتعالى طائفة من بنى أسرائيلا بأنهم كانوا لا يتناهوا عن المنكر ، ثم وصفهم بعد ذلك بما يدل على أن السبب فى ذلك هو عدم إيمانهم ، وضياع قيمة الإيمان من نفوسهم ، يقولى تعالى :

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ المائدة / ٧٨ – ٨١ .

وبهذا يتبين أن الأسلام لم يترك فريضة الأمربالمعروف والنهى عن المنكر لمجرد الشعور الطبيعى الذى تفرضه العقيدة بين أهلها بل بين وجوبها ، ولعن الذين يضيعونها كما هوواضح فى الآية السابقة ، وقد أوجبها بمثل قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

آل عمران / ١٠٤ ، وجعل هذه الصلة بين المسلين من أسباب خيرية هذه الأمه ، يقول تعالى :

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

فجعل خيرتها منوطة بالتزامها بمبدأ الزمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم قال لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

إلى آخر الآيات السابقة ثم قال : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » . رواه الترمذى واللفظ لأبى داود ، وأعتبر الأنكار بالقلب أدنى درجات الإيمان ، وجعل هذه المظاهر التى ذكرها عن بنى أسرائيل منافيه لمعنى الأنكار بالقلب ، ولهذا أستحقوا هذه العقوبة ، وقد روى مسلم فى حديث آخر عن أبن مسعود رضى الله عنه أن سول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من

أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسننه ، ويقتدون بأمره ، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوفا، يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو

مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

ولقد كان ذلك – ولا يزال – فى الأمة الأسلامية ، إلا أنها تحتاج إلى مرعاة هذا المبدأ بمزيد من الأهتمام حينما يفشوا المنكر ، ويظهر على سطح المجتمع الأسلامى ، حتى نحصن جبهتها الداخلية من عوامل الأختلاف والأضطراب ، ونمنع عنها أسباب النقص والتناقض ، ولا يصح أن نتوقف عن أداء هذا الواجب فى حق أخوننا فى الدين بسبب من المجاملة أو الرهبة ، لأنه حقهم علينا بفرض علينا أن نقدم لهم واجب النصيحة وأن نكلفهم عما يضرهم ويضر مجتمعهم معهم ، كما سبق وذكرنا المثل الرائع الذى ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم أستهموا على سفينة فكان بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، ولعل الحديث التالى يبين كيف يتضامن المسلمون فى أقامةالحق ، فقد روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أن الناس أذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه . رواه أبو داود والترمذى والنسائى فعلى الأنسان أن يلزم نفسه بعد أن يؤدى واجب النصيحة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وبعدئذ لا يضره ضلال من يضل ، لأنه قد أدى واجبه وأعذر إلى نفسه وإلى ربه .

ومن أجل ما قد يجد ، الناصح من المشقه والعنت وهو يؤدى نصيحته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن أجل ما قد يلقاه وهو يقوم بهذا الواجب من بغى أو سفه أعتبر هذا العمل بابا من أبواب الجهاد لأن الجهاد بالقتال يؤمن جبهة المسلمين الخارجية والجهاد بالأمر بالمعروف عن النكر يؤمن جبهة المسلمين الداخلية ، وما قيمة تأمين الجبهة الحارجية أذا تخربت الجبهة الداخلية بترك المعروف وشيوع المنكر ولم تجد من يحميها ويصونها ويرد عادية التخريب عنها ، فالأمر بالمعروف والنهى عن النمكر يحفظ الجبهة الداخلية ويقوم بمهمة لا تقل ضرورة للمجتمع من مهمة القوة العسكرية التى تحمى المجتمع الأسلام وحدوده من عدوان المعتدين .

العقيدة وبناء الأنسان
الصلة بين الخلق والخالق

حينما تكون عقيدة التوحيد حية نابضة فى قلب المسلم فأن شعوره بالأنسانية وبالصلة التى تجعله معها يكون شعورا حيا متوهجا ، بحيث يرى – مع شعوره بذاته وباستقلاله الشخصى – أنه جزء من الأسانية لا ينفصل عنها وأنها بالمثل لا تنفصل عنه ، سواء أحس الأخرون تجاهه بهذا الشعور ، أو تجاهلوه وتناسوه ، ذلك أن أيمانه بوحدانية الله سبحانه وتعالى يستتبع إيمانه بالتوحيد بين مخلوقاته ، لأنها جميعا من خلق اله واحد لا شريك له ، وهذه الصلة بينه وبين الخالق جلا وعلا تصل بينه – كذلك وبين مخلوقاته ، لأن الجميع مرتبطون بخالقهم بمثل هذه الصلة التى تربطة بالله ، فالجميع شركاء فى هذه الصلة ، متماثلون فيها لا غرو – أذن – أن يجد نفسه واحد منهم ، لا ينفصل عنهم ، ولا ينفصلون عنه ، بل لعل هذا الشعور يتعدى الصلة البشرية ليشمل الصلة الكونية بينه وبين سائر عناصر الكون ، تلك التى أبدعها الله بخلقه ، وسخرها بقدرته ودبرها بعلمه ، وبسرها لما خلقت له بحكمته .

ولم لا يشعر بذلك الم يعلم أنه قد خلق من ترب هذه الأرض وأنه يغذى من نباتها وثمارها :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾

المؤمنون / ١٢

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

الحجر ٢٦ ، فالصلة التى تربط الأنسان بالأرض ، وكل عناصر الكون التى تتصل بها ، صلة واضحة ، بينها الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ، فأذا أردنا أن نخصص نظرتنا إلى الصلة بالأنسانية ، فأن هذه الصلة تتأكد عبر مسار جديد ، يضاف إلى هذا المسار الذى أشرنا إليه ، وهو ما أكده الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم من حيث أن البشر جميعا ، أحمره وأبيضه وأسوده ، شرقه ، وغربه ، شماله ، وجنوبه ، ما صار فى بطون الماضى ولا يزل فى أحشاء المستقبل، كلهم جميعا خلقوا من نفس واحدة ، فالصلة بينهم أقوى وشيجة وأقرب رحما .

إليس الذى يؤمن بتوحيد الله يؤمن بقوله للناس جميعا :

النساء ، وبقوله تعالى

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

الحجرات ١٣ ، ويقوله تعالى وهو ينادى البشرية وينسبهم إلى أب واحد هو آدم عليه السلام فيقول :

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

الأعراف ٢٦ / ٢٧ ، ويقول فى نفس السورة :

* ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

ويقول ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الأعراف .

هذا الشعور الحى المتوهج بحياة عقديته تجاه الأنسانية عامة يجعله يحب لها أن تشاركه هدايته وتعيش فى ضوء عقديته التى هداه الله إليها لهذا يجد لديه الدافع العقلى والوجدانى والعاطفى لكى يدعو البشرية جمعاء لكى تؤمن بهذه العقيدة السمحة ، وتعيش فى نورها الباهر ، وتتمتع بعدلها وأمنها وسلامها أن الأنسان أذا أقتنع برأى ما فى أى قضية من القضايا ، ولو كانت من القضايا المادية ، فأنه يحاول دائما أن يقنع الأخرين بهذا الرأى ، وأن يجتذب أكبر عدد منهم إلى جانبه ، فما بالكم أذا كانت القضية

قضية عقيدة ، تترتب عليها جميع القضايا بعد ذلك لأن العقيدة هي المبدأ الأساسي الذي يحكم نظرتنا للأمور ، ويوجه أنواع سلوكنا وتصرفاتنا ، ويهيمن على صلاتنا وعلاقتنا ، لا شك أن تكون أذن مسألة أساسية في كل ما نأتي أو ندع ، وفي كل ما نفعل أو نترك ، وفي كل ما نقول ونرى .

ومع ذلك ، فلا حرج على المخالفين ، من حيث العلاقة الأنسانية ، والأخوة العامة التي تربط البشر أجمعين ، فأن الله سبحانه وتعالى لو اراد لجعلهم أمه واحدة ، ولكن الله يبتلي أهل الحق بأهل الباطل ، ويمحص الذين أمنو ، وليعرف أهل الحق قيمة ما يمتلكون فيزدادون عليه حرصا ، وبه تمسكا ، ويقفون موقف الحراسة الدائمة ، يقول الله سبحانه وتعالى : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ المائدة / ٤٨

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ يونس / ٩٩

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ هود / ١١٩

فمن طبيعة الأمور – التي أرادها الله – أن يختلف الناس ،

لافى الأمور المادية والدنيوية فحسب ، بل فى امور العقائد ، ولكن من طبيعة الأمور - التى أرادها الله سبحانه وتعالى كذلك - أن يكون أصحاب عقيدة التوحيد غيورين عليها ، حريصين كل الحرص على سلامتها ، قائمين على حراستها والذود عنها ، ليتمتعوا بها ، ولتكون بعد ذلك منهلا عذبا سائغا لكل من يهتدى بانوارها ، أو يلتمس قبسا من ضوئها .

بل أن عقيدة التوحيد تملك خصيصة لا يخلو منها مؤمن ثابت الأيمان ، قوى اليقين تلك هى الرغبة فى أن تسود هذه العقيدة فى سائر المجتمعات وأن ينتشر نورها فى العالمين ، ليهتدى بها من سبقت له من الله الحسنى ، وأذا كان بعض أهل العقائد الأخرى يشعرون بشىء من هذا الشعور ، فأنه فى أهل التوحيد أتم وأكمل ، وأعم وأشمل ، لأن عقيدة التوحيد تشمل فى وجه من وجوه معانيها توحيد العباد فى توحيد المعبود جل شأنه ، فأذا أستقام العباد على نهج التوحيد ، أستقامت الحياة ، وأصطبغ الكون بصبغة الله :

صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

البقرة / ١٣٨ ، ولأن المؤمن بالتوحيد يظل يشعر أن توحيده غير كامل ما دام فى الكون من لا يمجد هذا التوحيد ، ولأن المؤمن بعقيدة التوحيد يشعر بمقتضى عقيدته تلك ، بتلك الرابطة التى أشرنا اليها فى أول الحديث والتى تجمعه مع باقى عناصر الكون و بالأنسان ، أو النقل بتلك الوحدة التى تصهره فى باقى عناصر

الكون وبالأنسان ، فى صعيد واحد يخضع لله ويمجده ، أما عناصر الكون فهى خاضعة لله :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩﴾

الرعد / ١٥ ، :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝﴾

النحل / ٤٩ ، : ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝﴾ .

الأنبياء / ١٩ - ٢٠ ، أما الأنسان فهو ذلك الذى نشعر تجاهه بأن ينبغى أن ينسجم طوعا مع باقي عناصر الكون فى عبادة الله وتمجيده والخضوع له سمعا وطاعة .

ومع أن هذا الشعور في المؤمن بالتوحيد يملأ عليه أقطار نفسه حتي يفيض عنها ليغمر الآخرين بأنواره وهدايته ، فأن الله سبحانه وتعالى ، يعلم أن نفس الأنسان جموع شموس ، بليدة عنيدة ، وأن أهل الأيمان قد يجدون فى هدايتهم وأرشادهم الكثير من العنت والمشقة ، أو الكثير من الرفض والمقاومة ، بل الكثير من البغـي والعدوان بهذا يفتر أهل الإيمـان ويدفعهم إلى الأسـترخاء

والأستكانه ، طلبا للسلامة ، وحبا للراحة لهذا لم يترك الله هذه القضية بغير بيان ، موضحا أننا أذا لم نعمل على نشر ضياء الحق ، فأن ظلام الضلال والباطل سوف يغمرنا لا محالة .

فاللجهاد دافعان ، دافع أنسانى عام ، ينبعث من رغبتنا فى أن نجعل الآخرين يشركوننا نعمة التوحيد ، وأن يدخلوا فى السلم كافة ، ودافع أنسانى خاص هو حماية أهل التوحيد من البغى والعدوان ، وحماية عقيدتهم من تهان أو تستذل أو تحتقر ..

ومن هنا يتبين أن الجهاد فى الأسم شىء ، والحرب وما يكون فيها من أثم وعدوان شىء آخر ، أن الجهاد عمل عقائدى يقصد به وجه الله ، وهداية الأنسانية ، فهو ينبعث عن عاطفة الرحمة والشفقة والمحبة الأنسانية العامة ، ولهذا لا يخرج المجاهدون فى جهادهم عن حدود الضرورة دفاعا عن النفس وتأمينا للدعوة وبعدا عن أراقة الدماء ، وعن أفساد الأرض ، والحرث والنسل وعن العدوان على الأطفال والنساء والشيوخ ، أو العباد فى المعابد . أما الحروب التى تشهدها الأنسانية خاصة هذه الأيام ، والتى يقصد بها بسط النفوذ والسيطرة ، وأستنزاف الموارد البشرية والمادية ، والأستعلاء فى الأرض بغير الحق فهذه لا تبالى بالأورواح التى ترهقها ، والموارد التى تفسدها ، والدمار الذى تنشره وتشيعه ، والحقوق التى تغتصبها .. وعلينا أذن أن نفرق بين معنى الجهاد فى الأسم . ومعنى الحرب عند الآخرين ، فلا نقيل أن ينسب إلى الجهاد الأسلامى الشريف الرفيع ، ما ينسب إلى أنواع الحروب الآخرى من بغى وأثم وعدوان .

أما الحروب الأخرى فتبعث من نزعات العنف والعدوان ، والشعور بالأستعلاء والأستكبار ، وتهدف إلى بسط النفوذ واليهمنة أغتصاب الحقوق ، وأستنزاف الموارد ، وا فساد الحرث والنسل .

وأذا لم يكلف هذان الدافعان المذكوران فيما سبق لحفز أصحاب العقيدة على الجهاد ، ودوامه ، والثبات فيه صبرا ومصابرة ، فأن الله سبحانه وتعالى لا يتركنا لانفسنا ولا يترك أمر الجهاد للأختيار الحروالدوافع الذاتية بل يجعله - كما ذكرنا- خصيصة من خصائص عقيدة التوحيد ، وفرضا مفروضا على المسلمين إلى قيام الساعة .

أن العوامل والأسباب التى تتطلب من المسلمين أن يكونوا دائما على أهبة الأستعداد و دائمة لا تتوقف ، وقد أشار القرآن إليها ، وأثبت التاريخ طيلة هذه القرون ، منذ نزل القرآن الكريم ، أنها مستمرة ، وأن فريضة الجهاد لا يمكن أهمالها أو تأجيلها ، أو التهوين من شأنها . ولنتدبر معا بعض هذه الآيات الكريمة لنرى أن كان الشاهد فيها لا يزال يواجة المسلمين فى كل عصر وفى كل مصر .

يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

الحج / ٣٨ - ٤١

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) ﴾ النساء / ٧٤ – ٧٥ ، ثم يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾

النساء ٧٦ ، ويقول :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) ﴾ النساء / ١٠٢ ، ويقول جل ثناؤه :

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝﴾

التوبة ٨ / ١٠ ، كما يقول جل ثناؤه .

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝﴾

الممتحنة / ٢ ، فهذه الآيات ومثيلاتها تشير إلى الضرورة الملحة إلى أستمرار فريضة الجهاد إلى يوم القيامة ، لأن الأسباب المذكورة فيها لا تنقطع ، ما دام هناك على الأرض عدو لعقيدة التوحيد ، لا يؤمن بها ، ولا يخضع لها ، ولا يكتفى بذلك ، بل يصد عن سبيلها ، ويريد أن يعيد أهلها إلى طريق غير طريقها :

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝﴾ النساء / ٨٩ .

يضاف إلى ذلك أن الأمة الأسلامية مكلفة أن تحمل الأمانة وأن تبلغ الرسالة التى حملها إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

فيبلغونها إلى من خلفهم ، وهم حين يفعلون ذلك يتعرضون ، بلا شك ، لالسنة السفهاء ، وحماقة الحمقى ، وأصحاب المصالح ، فى شيوع الباطل وأستبعاد الشعوب ، فهم مضطرون للجهاد والقتال أضطرارا لا محيص عنه ولا مفر منه ، يقول الله تعالى :

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله علية وسلم قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » . متفق عليه ، وعن أبى هريرة رضى الل عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » رواه البخارى .

ولا يليق أن يخطر بالبال ما قد يرجف به المجرفون من أن أهداف الجهاد المجاهدين فى سبيل الله أهدف مادية هى الكسب والمغنم ، كيف لا يكون الجهاد جهادا الا أذا كان فى سبيل الله وقد يستشهد فلا ينال الا رضوان الله ، ويترك الدنيا بما عليها ومن عليها ، فأذا خرج المجاهد وله هدف أخر لم يكن من المجاهدين ، وأنما يكون عندئذ من المحاربين ، ولا أجر له فى ذلك ، بل ربما كانت عليه أثام وعقوبات ، ليس هدف الجهاد فى الأسلام هو القتال من أجل القتال ، ومن أجل المغانم المادية ، ولا من أجل

أستبعاد الشعوب وأستنزاف مواردها وخيراتها ، ولكنه من أجل تعبيد الأرض وتمهيدها لتسود كلمة الحق ، وتعلو شرعة الله ويعم عدل الله ونوره فى العالمين ، ورجل واحد يهدية الله على يد المجاهد خير له من الدنيا وما فيها ، ولنتأمل معا هذا الحديث الشريف لنعرف حقيقة أهداف الجهاد فى الأسلام وتتلاشى أمامها هذه الأراجيف فقد روى الشيخان - البخارى ومسلم - عن أبى العباس سهل بن سعد السعدى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوم خيبر : لا عطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله علي يدية ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبأت الناس يدركون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجوا أن يعطاها ، فقال : أين على أبن أبى طالب ؟؟ فقيل يا رسول ألله أنه هو يشتكى عينيه ، قال ، فارسلوا اليه فأتى به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعا له ، فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال على رضى الله عنه : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : أنفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم . ثم أدعهم إلى الأسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحد خير لك من حمر النعم .

العقيدة وبناء الأنسان
الرحمة طابع الأمة

لو تخيلنا باحثا أراد أن يبحث فى عقيدة هذه الأمة ، عقيدة التوحيد وإسلام الوجة إلى الله تعالى ، لمجرد البحث والأطلاع والمعرفة ، ثم سئل عن أنطباعه العام الذى خرج به من البحث ، بعد التأكد من أنها عقيدة التوحيد الصافى الخالص المنزه ، فماذا نتصور منه أن يقول !؟ فلا شك أنه سوف يخرج بانطباعات كثيرة ، ولكنه لو بدأ فأوجز أنطباعه بقوله : إن هذه العقيدة هى عقيدة الرحمة ، وإن دينها هو دين الرحمة ، وإن أمتها هي أمة الرحمة ، لو أنه بدأ بذلك ، وأكتفى ، لما أبعد ، لكان فى ذلك بالغا المدى فى الصحة ، وبالغا الأعماق فى الدقة ، فالرحمة هي الأطار العام والطابع الشـــامل الذى يميز هذه الأمة ، وما تعتنقه من عقيدة ودين ، ولا توجد فى الأسلام ناحية من نواحية إلا وهي مختلطة بالرحمة ظاهرا وباطنا .

كثيرا من الناس يغفلون عن ذكر الله عندما يبدأون أعمالهم أو تحركاتهم أو وجوه نشاطهم المختلفة ، هؤلاء يعلمون ما يعملون وهم غفلون عن حقيقة هويتهم ، وعن مبدئهم ، والمنطلق الذى ينطلقون منه ، والهدف الذى يرمون إليه ، ولا جرم أن تحبط أعمالهم ، وإن صادفهم النجاح الظاهرى ، وكثيرون آخرون يكتفون بذكر الله ولا

يذكرون تلك الصفـات الحبيبة التى يتحبب الله - تعالى - بها الينا ، من صفات الرحمة ، فهؤلاء لهم من الله تعالى على قدر ما ذكروه ، ولكن المسلم لا يتحرك ، ولا يتصرف ، ولا يتكلم إلا بدأ « **بسم الله الرحمن الرحيم** » ، تلك البسملة الجميلة التى تشيع فى العمل ، وفى نفس العامل روح الرحمة فهو يتوقعها ، وهو يبذلها ، وهو يعمل فى ظلها ويتقبل اعمال الآخرين بروحها ، لا جرم أن يشمله الله برحمته ، ولو صادفه الأخفاق ظاهرا .

ولم يكن ذلك أبتكارا أبتكره المسلمون من عند أنفسهم - وهم جديرون به - ولكنه وحى أوحاه الله اليهم ، وعلمه لهم ، فبدأ به كتابه الكريم « **بسم الله الرحمن الرحيم** » وما زال يكررها فى مطلع كل سورة، حتى أستقر وجدان كل مسلم أستقرارا لا يفارقه فى نوم ولا يقظة ، ولا سكون ولا حركة ، ولا صمت ولا كلام أننا أمة يعاملها الله من باب هذه الصفات ، وأننا أمة نتعامل فيما بيننا بروح هذه الصفات ، وأن رسالة الأسلام نفسها ليست إلا رحمة خالصة ، ولم نبعد فى الحديث ، والله جلت ذاته يقول فى كتابة العزيز مخاطبا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

الأنبياء / ١٠٧ ، فعلمنا أن رسالته صلى الله عليه وسـلم رحمة ، « ليست خاصة به ولا بأهلة وعشـيرته ، ولا بقومه من العرب ، ولا بالأنس وحدهم عربهم وعجمهـم ، ولا بالثقلين من الأنس والجن ، ولكنها عامة للعالمين ، تشمل جميع العوالم فى ملك الله تعالى وملكوته ، ما علمنا منها وما لم نعلم فى » الحديث رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

اللهم أنى أسألك بالله الواحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد أ تغفر لى ذنوبى أنك أنت الغفور .

وقد نقل عن الأمام أحمد جواز ذلك كما مر لكن المانعين لهذا التوسـل قد أولوا الحديث وأجابوا عنه بأنه على حـذف مضاف أي : أتوجه إليك بدعاء نبيك أو بشفاعة نبيك صلى الله عليه وسلم ففيه جعل الدعاء وسيلة وهو جائز ويرجع هذا التأويل قوله فى آخر الحديث : « اللهم فشفعة فى » بل قال الأمام أبن تيمية مؤكدا أن هذا التوسل كان بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم لا بذاته : ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبى ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبى بالسؤال به لم يكن حالهم كحاله . من كتابه القاعدة الجليلة / ٦٤ .

وعلى هذا لا يصلح الحديث دليلا لمن أدعى جواز القسم بذاته أو التوسل بشخصه صلى الله عليه وسلم حيا وميتا وكذا بذوات غيره من الأرواح المقدسة قياسا عليه (عليه الصلاة والسلام) بجامع الكرامة وأن تفاوت قوة وضعفا .

أما حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه – الذى أستسقى فيه بالعباس – وهو فى البخارى – فهو توسل بدعاء العباس وهو حى كما كانوايتوسلون بدعاء صلى الله عليه وسلم ، ولو كان التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد أنتقاله من دار الدنيا جائزا لما عدلوا عنه إلى غيره بل كانوا يقولون : « اللهم أنا نتوسل إليك بنبينا فاسقنا » وحاشاهم أن يعدلوا عن التوسل بسيد الناس إلى التوسل بعمه العباس ، وهم يجدون أدنى مساغ لذلك

فعدولهم هذا مع أنهم السابقون الأولون وهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله وما يشرع من الدعاء وما لا يشرع دليل واضح على أن المشروع هو ما سلكوه دون غيره وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره ويتوسلوا بذاته لكنهم لم يفعلوه .. ويؤيد ذلك أن العباس - رضى الله عنه - كان يدعو وهم يؤمنون لدعائه حتى سقاهم الله .

وبعد هذا الحديث أو ذاك فأذا أعتبرنا أن التوسل بذات النبى صلى الله عليه وسلم من الأمور المختلف فيها والمشتبه فى فهمها فحسبنا قول النبى صلى الله عليه وسلم « من أتقى الشبهات فقد أستبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام » لا سيما وأن هذه الشبهات تمس العقيدة فتجنبها أولى .

أما حديث « اللهم أنى أسالك بحق السائلين عليك وبحق هذا .. الخ » فهو حديث ضعيف بأجماع أهل العلم كما قال الأمام أبن تيمية وأما خبر « أذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور » أو فاستعينوا بأهل القبور - فهو حديث مفتر على رسول الله صلى الله عليه وسلم باجماع العارفين بحديثه كما صرح به الأئمة الأعلام .

وكذا حديث « أن الله يوكل ملكا على قبر ولى يقضى حوائج الناس » هو من أفرى الفرى وأكذب الكذب على رسول اله صلى الله عليه وسلم ، لم يروه أحد من العلماء ولا يوجد فى شىء من كتب الحديث المعتمدة ، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أتخاذ القبور مساجد ولعن من يفعل ذلك فكيف يتصور منه عليه

الصلاة والسلام الأمر الأستغاثة والطلب من أصحابها ؟سبحانك هذا بهتان عظيم .

قال العلامة الالوسى فى تفسيره : أن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من ألاولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم - مثل يا سيدى فلان أغثنى - وليس ذلك من التوسل المباح فى شىء واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك وأن لا يحوم حول حماه ، وقد عده أناس من العلماء شركا ، وأن لا يكنه فهو قريب منه ..

ولا يغرنك أن المستغيث بمخلوق قد تقضى حاجته فإن ذلك أبتلاء وفتنه منه عز وجل وقد يتمثل الشيطان للمستغيث فى صورة الذى أستغاث به فيظن أن كرامة لمن أستغاث به ، هيات هيهات أنما هو شيطان أضله وأغواه وزين له هواه كما يتكلم الشيطان فى الأصنام ليضل عبدتها .. ولقد ساء ما يحكمون » الوسى ٦ / ١٢٨ ويقول الشيخ الشنقيطى : « وعلى هذا فما يزعمه كثير من المتصوفين أن المراد بالوسيلة المأمور بها فى الآية هو الشيخ الذى يكون له واسطة بينه وبين ربه لا يصل إلى الله الا به - أنما هو تخبط فى الجهل والغى وضلال مبين فأتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار كما صرح به جل وعلا فى قوله :

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ

وقوله عنهم :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

فقد صرح سبحانه بأن هذا شرك بالله تعالى . أضواء البيان للشنقيطي : ٢ / ٩٧ .

وفي الخاتمة أقول : أن ساحة التوحيد يجب أن تصان عن كل هذه الشوائب وقد كثرت الآيات والأحاديث كثرة تحمي حمى التوحيد وتطهره من دنس الشــرك وتبين أن هؤلاء المستغاث بهم لا يملكون شيئا قال تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾

الأعراف / ٩٧ ، وقال :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

الأسراء/ ٥٧ وقال :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾

سبأ / ٢٢ وقال :

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ فاطر / ١٣

حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الخلق جميعا لم يغن عن أقاربه ولا عن نفسه شيئا وأمره ربه أن يعلن ذلك على الملأ قال تعالى :

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ الأعراف / ١٨٨

أما فى جانب الله سبحانه وتعالى فقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى ، وفى رواية : غلبت غضبى ، وفى رواية : سبقت غضبى ، متفق عليه ، وهذا مصداق قوله تعالى :

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

الأنعام / ١٢ وكررها فى السورة نفسها بقوله تعالى :

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

الأنعام / ٥٤ ، وما من موطن فى القرآن العظيم يشار فيه إلى العذاب والعقاب إلا ويفتح الله فيه باب المغفرة والمتاب ، فمن رحمته فتح باب التوبة ، ورغب فى دخوله حتى يقبلهم وتشملهم رحمته ، مهما بلغت سيئاتهم وذنوبهم ، ما لم يكن شرك بالله أو كفر به ، لأنه لا يستقيم أن يكفر العبد بالله ثم يرغب رغبة حقيقية فى رحمته ، يقول تعالى

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

الزمر / ٥٣ ، بل إنه أخبرنا وأكد لنا أنه لا يجتمع إسلام صحيح ويأس من رحمة الله ، يقول تعالى حاكياً على لسان إبراهيم عليه السلام

الحجر / ٥٦ ، ويقول جل شأنه حاكياً عن لسان يعقوب عليه السلام

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

يوسف / ٨٧ ، ثم إنك بعد ذلك لن تفتر عن وصفه تعالى وذكره في القرآن الكريم بأنه

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

الأحزاب / ٤٣ ،

إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾

المؤمنين / ١٠٩ ، وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

المؤمنين / ١١٨ ، وهو سبحانه أرحم الراحمين ، فيذكر القرآن الكريم قول سيدنا موسى عليه الاسلام

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

الأعراف / ١٥١ وقول سيدنا يعقوب عليه السلام .

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

يوسف / ٦٤ ، وقول سيدنا يوسف عليه السلام

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يوسف / ٩٢ .

وقل سيدنا أيوب وهو يتضرع إلى الله

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾

الأنبياء / ٨٣ ، ثم يحكى قول سيدنا شعيب عليه السلام وهو يدعو قومه ويتطلف بهم أشفاقا عليهم ورحمة :

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

هود / ٩٠ ، فأى رقة وأى تلطف وشفقه أعظم من أن يتودد الله تعالى إلى عبادة ، وهو رفيع الدرجات ذو العرش وله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم ، وهم جميعاً إليه فقراء محتاجون ، وفي أنفسهم ضعفاء عاجزون ، وهو الغنى الحميد وهو الغفور الودود

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾

البروج / ١٤ – ١٦ .

ومن الصور الجميلة ذات المغزى ما يقصه السول صلى الله عليه وسلم عن رحمة الله بعباده تلك الصورة التى تظهر كيف أن رحمة الله لا تتخلى عمن يبدو لنا أن الله إبتلاهم من عباده ، بل له في ذلك البلاء حكممة وتصاريف ، فيروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يارب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلان مرض فلم تعده !! اما علمت إنك لو عدتـه لوجدتنى عنده !! يا ابن آدم ، إستطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يارب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه إستطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟!! اما علمت إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى !! يا ابن آدم ، إستسقيتك فلم تسقنى ، قال : يارب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : إستسقاك عبدى فلان فلم تسقه ! أما علمت إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى رواه مسلم ، وهكذا نعرف من هذا

الحديث من رحمة الله مقترنة بالبلاء ، فلا ينفك المبتلى من عباده المؤمنين من رحمة الله تشمله وتشمل كل من يعنيه على بلائه ، أو يواسيه فيه ، فأى رحمة أوسع وأسبغ ! !

١٠ ، ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بأنه التزم ووفى ، وبين له حسن العاقبة فى ذلك ، فقال تعالى له صلى الله عليه وسلم

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

آل عمران / ١٥٩ ، ثم امتن على المسلمين برافته ورحمته صلى الله عليه وسلم قائلاً

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ التوبة / ١٢٨ .

وكانت رحمته صلى الله عليه وسلم فطرة وجبلة أودعها الله فيه لا مجرد سياسة ، أو مقتضى حال وإن طابقت هذه الفطرة والجبلة الكريمة الراقية مقتضى الرسالة ومستلزماتها ، فعندما فجاءه الوحى أول مرة ، عاد صلى الله عليه وسلم إلى زوجته أم المؤمنين السيدة خدجة بنت خويلد ، يرجف فؤاده ، وقص عليها ما وقع له ، ثم قال لها : لقد خشيت على نفسى ، فماذا كان تعليق السيدة خديجة رضى الله عنها ؟ لقد أجابته بما تعرفه منه معرفة وثيقة ، قائلة له : كلا ، والله لا يحزنك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ،

وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، أنظر رواية البخارى ، فماذا نجد فى هذه الخلال وحميد الفعال ، إلا أن يكون جماعها ومنبعها صفة الرحمة ، ويروى الإمام مسلم فى صحيحه أنه قيل : يا رسول الله ، أدع على المشركين ، قال : إنى لم أبعث لعانا ، وإنما بعثت رحمة ، وعندما رجع صلى الله عليه ولم بعد رحلته إلى الطائف ليعرض نفسه عليهم لعلهم يحمونه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولم يجد عندهم إلا السخرية والإستهزاء وتحريض سفهائهم وصبيانهم عليه يقذفونه بالحجارة – بأبى هو وأمى صلى الله عليه وسلم – جاءه جبريل ومعه ملك الجبال ، ولديه تفويض أن يأتمر بأمر رسول الله فى شأن من اذوه وإضطهدوه وضيقوا عليه وعرض عليه الملك أن يطبق عليهم الأخشبين من جبال مكة ، فلم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينالهم بسببه شيء من ذلك وإنما تضرع إلى الله تعالى فى هدايتهم معتذراً عنهم قائلاً « اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يشعر بالأسى والحسرة على هؤلاء المعاندين والمكابرين ، وذلك من شدة رحمته عليهم ، حتى كان القرآن ليواسيه ، وليطلب إليه أن يخفف من حزنه وحسرته ، ويقول له

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

ويقول

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

الكهف / ٦ ، ويقول

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

الشعراء / ٣ ويقول

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

الحجر / ٩٧ – ٩٨ ، ويقول

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

النحل / ١٢٧ إلى غير ذلك من الآيات .

لا غرو – بعد ذلك كلية – أن ينطبع المسلمون ، وأن تنطبع أمة عقيدة التوحيد بهذا الطابع البارز في معاملة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لهم ، طابع الرحمة ، وأن تكون الرحمة هي طابع الأمة في كل شئونها ، إن اقدس ما تتعلق به شئون المسلم هو التكاليف الإلهية ، وهي مع هذه القداسة مصطبغة بالرحمة

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

البقرة / آخر آية ،

حتى بعض المحرمات ، جعل الله فى بعض الضرورات مبرراً للسماح بها على قدر الضرورة التى إقتضتها ، فجعل العسر مقترناً باليسر ،

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝﴾ الطلاق / ٧

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾

- الإنشراح / ٥ - ٦ ، فكيف بهم إذن لا ينطلقون فى حياتهم معاً فى بحبوحة هذه الرحمة التى أحاطهم الله تعالى بها .

والأمة الإسلامية حين يتمكن منها الإسلام لابد أن يظهر فيها الطابع ، وأن تتميز به تميزاً بارزاً يكون كالعلامة بين سائر الأمم ، فإذا إنطمس هذا الطابع ، أو حال لونه فلم يظهر أمام الآخرين ، فعلينا أن نتدبر أمرنا ، ونتبين أسباب القصور فى شعورنا بإسلامنا بحيث لم يبرز هذا الطابع فيما بيننا .

أما أن هذا هو طابع الأمة الإسلامية حين يتمكن منها الإسلام ، فهذا هو ما وصفهم الله تعالى به فى الكتب السابقة ، حتى قبل أن يوجدوا فى واقع الحياة ، يقول تعالى عنهم :

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝﴾

فهذا هو طابعهم وعلامتهم التى يعرفون بها عند أهل هذه الكتب ، فإذا إنطمست هذه العلامة ، وتميع هذا الطابع ، ولم يعد المسلمون رحماء فيما بينهم ، فإنهم يصبحون فى خطر عظيم أن يستدل الله بهم غيرهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾

المائدة / ٥٤ ، ولقد تبدو الشــدة والتعزز على الكفار ومخالفة لتلك الروح الشــاملة للرحمة والتى تسيطر على هذه العقيدة وتطبعها بهذا الطــابع ، ولكن الحقيقــة إن هذه الشدة وهذه الغلظة فى مجاهدة المعــاندين لله ورســوله هى عين الرحمة ، لأنه المقصود بها تنبيــه من لا يريدون أن ينتبهوا إلا بالشدة إلى التفكر والتدبر وإلى مراجعة النفس لعلهم يهتدون فيدخلون بذلك فى رحمة الله تعالى ، ذلك لأن الناس أصناف منهم من ينتبه من نفسه بغير حاجة إلى من ينتبهه ، ومنهم من يحتاج إلى مجرد التنبيه الرفيق الرقيق ، ومنهم من يحتاج إلى تكرار التنبيه ، ومنهم من يعاند ويكابر ويسعى فى الأرض فساداً ، ومثل هذا لا يكفيه أن تنبهــه برفق ، ولكنــه يحتــاج إلى شــىء من الشــدة والقســوة لعله

يستفيق ومن ذلك ما يعبر عنه الشاعر بقوله فقسا ليزد جروا ، ومن يك راحماً .

فليقس أحياناً على من يرحم والرحمة فى الإسلام - إذن - رحمة عامة شاملة ، وإن أخذت مظاهر متعددة تبدو فى بعضها على خلاف ما نتوقع .

وإذا كان هذا هو الطابع الذى ينبغى أن نتوقعه بين المسلمين ، فإن الله ورسوله لم يتركاه بغير تأكيد وتأييد ، وفى الآيات السابقة ما فيه عناء كبير ، وأما فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهناك ثروة كبيرة ، وكيف لا ، وقد ذكرنا أن الرحمة فى الإسلام لا تترك فيه مجالاً ولا جانباً إلا وتأخذ حظها الوافر منه ، فنكتفى ببعض الإشارات ، فمن رحمة الله بعباده يضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لنا هذا المثل فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا امرأة من السبى تسعى إذ وجدت صبيا فى السبى ، أخذته فالزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ، قلنا : لا والله ، فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها متفق عليه ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله .

وعن وصف المؤمنين بصفات الرحمة يروى النعمان بين بشير رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا

إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . متفق عليه . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

وأما صلة الرحم فلها فى الإسلام شأن أى شأن ، وأول صلة الرحم صلة الوالدين ، والوصية بهما تلى الوصية بعبادة الله وحده ، ثم بعد ذلك الوصية بمن يليهما من الأرحام . فيقول تعالى

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

النساء / أول آية ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ ! قالت : بلى ، قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأوا إن شئتم

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

محمد / ٢٢ - ٢٣ متفق عليه ، وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه . متفق عليه .

ورحمة المؤمنين فيما بينهم تكون حتى فى العبادة ، فعن أبى

هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا صلى أحدكم بالناس فليخفق ، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير ، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء . متفق عليه . وعن أبى قتادة الحارث بن ربعى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز فى صلاتى كراهة أن أشق على أمه رواه البخارى . وما عن الرحمة بالأولاد والصغار ، فقد روى أبو هريرة قال : قبل النبى صلى الله عليه وسلم الحسن بن على رضى الله عنهما ، وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ماقبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من لا يرحم لا يرحم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ فقال : نعم ! قالوا : لكنا والله ما نقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أملك إن كان الله قد نزع الرحمة من قلوبكم ! !

وعن صلة المسلمين بعضهم ببعض فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة ، متفق عليه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صنى الله عليه وسلم : لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبع

بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ، التقوى ههنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرئ من الشر أن يجقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . رواه مسلم .

وعن رعاية الأمة يقول أبو يعلى معقل بن يسار : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه الجنة . متفق عليه . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى بيتى هذا : اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشفق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به . رواه مسلم .

الدعاء فى شهر رمضان

إذا كان الدعاء هو زاد المؤمن وحليفه وهو إقرار بالعبودية أمام من خلقه ورزقه وأقامه فى هذا الوجود أميراً عليه وسخر له كل ما حوله حتى يتوفر الإنسان على خدمة من إصطفاه من المخلوقات وإستودع فيه قبسه من نوره ونفخه من روحه وأبصر بها وسمع وتكلم وتألم وتعلم وشرف بالتكليف ليفوز بحسن المثوبة وموفور الجزاء إذا كان الإنسان على هذا المقام من الدعاء على مدى الانفاس والأوقات .

فإنه فى رمضان يكون الدعاء اوجب ورحمة الله أوسع . نعم يكون الدعاء محمولاً على أجنحة القبول ممن يملك خزائن السموات والأرض لا تنفد ولا تنقص ولا تغيض .

ذلك لأن شهر رمضان هو الظرف الذى زالت فيه الحجب بين السماء والأرض فيه الحق على الخلق وإستقبل نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام طلائع النور من اللوح المحفوظ من الروح الأمين فى غار حراء فناداه وناجاه وإصطفاه من خلفه واجتباه .

فالتقت أنوار الحق جل جلاله مع أنوار الملك الذى تكفل بإبلاغ الوحى إلى أنبياء الله ورسله مع نور الهادى البشير صلوات الله وسلامه عليه .

ولئن عز نور الله فى الملأ الأعلى وإحتجب نور الوحى عن

الأرض باختتام رسالات الرسل على يد خالقهم عليه السلام ووأرى الثرى جسد النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم فإن نور القرآن المجيد مازال ساطعاً مبهراً يهدى به الله من إتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

العقيدة وبناء الإنسان
الحياء حيلة البناء

عندما يلبس الإنسان ثوباً أبيض ناصع البياض فإنه يكون حريصاً على الحرص من التعرض لشيء من الأدناس ، أو حتى لشيء من الغبار ، لأن هذا الدنس أو هذا الغبار سوف يبرز بصورة واضحة على هذا الثوب الناصع البياض ، وعندئذ يشعر صاحب الثوب بالحرج ، لظهور هذه الآثار على ثوبه ، ومن أجل الشعور بهذا الحرج فإنه يكون حريصاً دائماً على أن يبتعد عن كل ما من شأنه أن يلوث ثوبه ولو بالغبار فإن صادف أن أصاب ثوبه شيء من ذلك ، فإنه يحرص على أن يستره ويخفيه عن أعين الناظرين ، إلى أن يعيد نظافة ثوبه من جديد .

ولو أن ثوبه كان مختلط الألوان ، لأمكن أن تختفي هذه الآثار ، وأمكن ألا يشعر بهذه الدرجة من الإحراج ، وأمكن أن يصبر وقتاً أطول إلى أن يعيد نظافة ثوبه من جديد .

عقيدة التوحيد هي الحق الناصح

إن صاحب هذا الثوب الأبيض حين يشعر بهذا الحرج يراعي في نفسه نظرات الناس إليه ، ولا يريد أن يطلعوا منه على شيء يؤذي النظر أو يسيء إلى صورته في أعينهم ، فهو يحب أن يبدو دائماً على أتم صورة من النظافة والنقاء .

وكثيراً ما يكون هذا شعوره بصرف النظر عن علاقته بالناس ، لأنه حين فضل أن يلبس البياض ، أراد أن يظل على صورة النقاء والصفاء والطهارة الكاملة فهو يأنف فى نفسه أن يصيب ثوبه ما يلوثه ولو بالغبار ، ويشعر فى نفسه بالضيق من تعلق هذه الآثار بثوبه حتى يعيد نظافته من جديد ، ويعود ثوبه ناصع البياض كما كان من غير أن تعلق به شائبة من هنا أو من هناك .

هذا الشعور بالحرج أو بالضيق أنما ينشا بسبب وضوح التقابل بين النظافة والقذارة . وبين الطهارة والدنس ، وبين النقاء والتلوث ويظهر ذلك فى الثوب الأبيض الناصع البياض أتم ظهور .

وإذا كان ذلك واضحاً فى هذه الصورة المادية ، فإنه فى الناحية المعنوية يحتاج إلى رهافة فى الحس ، ورقة فى الشعور ، ودقة فى الإدراك .

وعقيدة التوحيد ، هى الحق النقى الناصع ، وصاحب هذه العقيدة ، مثله كمثل صاحب الثوب الأبيض الناصع البياض ، يخشى عليه من هبة الريح أن تلوثه ولو بذرة من ذرات الغبار ، فإذا تعرض صاحب هذه العقيدة ، لشىء يجافى التوحيد ، أو يخالف العقيدة ، أو ينتقض شيئاً من عناصرها ، أو من لوازمها ، أو مما تتطلبه من سلوك وإخلاقيات ، فى الأفعال أو فى الأقوال ، فإنه سوف يشعر بالحرج الشديد ، من أن يطلع الآخرون على هذه الآثار التى تشـوه صورة إيمانه ، كما إنه سوف يشعر فيما بينه

وبين نفسه بالضيق لأنه لم يستطع أن يصون إيمانه ذلك من التعرض لما يمسه ويؤذيه ، وينقصه . ويشعر مع ذلك كله بالتضاؤل ونقل المسئولية التى يحملها أمام الله ، سبحانه وتعالى ، لأنه فرط فى جنب الله ، حين عرض إيمانه لما ينقصه أو يشبوهه ، بعد إذ أنعم الله عليه بنعمة الإيمان ، وكمله بعقيدة التوحيد ، وأصبح مسؤلا أن يحتفظ بهذه النعمة فى إنقى صورة ، ليظهر بها فى أبهى حلة ، وأجمل هيئة .

شعور المؤمن بعقيدة التوحيد يجعله حريصاً عليها

إن شعور المؤمن بعقيدة التوحيد بضرورة الحرص على عقيدته من التعرض لما يمسها سواء فى فكره ، أو فى قوله ، أو فى فعله ، أو فى سلوكه وتصرفاته ، أو فى علاقته بالآخرين ، وشعوره بالفارق بين نقاء هذه العقيدة وطهارتها وصفاتها ، وبين ما فى مخالفتها من دنس ورجس يجعله يحرج منه ويضيق به ويأنف من التعرض له ، هذا الشهور هو الحياء ، فهو يربا بنفسه أن يتعرض لهذا الحرج أمام الناس ، ويربا بنفسه أن يرتكب ما لا يتفق مع إيمانه وعقيدته ، ويربا بنفسه أن يقصر فى حق ربه ودينه وأن يقف أمام الله موقف المضيع للحق ، المفرط الأمانة .

الحياء شعبة من الإيمان

وإذا كانت العقيدة هى التى تبنى شخصية المؤمن ، فإن شعور الحياء هو الذى يصون هذا البناء ، ويحفظ عليه سلامته ، ويجمله بالنقاء ، ويحليه بالطهارة والصفاء ، فإذا ذهب الحياء ، وإنكشفت البناء لعوادى الفتن وإفات المخالفة والمعاصى ، زالت حليته ، وحال جماله ، وتغيرت صورته ، بل لعله من إستمرار تعرضه للآفات تتلف أركانه ، وتتهاوى جدرانه .

ولهذا نجد أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تربط بين الإيمان والحياء ، فقد روى مسلم وغيره عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الحياء من الإيمان » كما روى مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

والحقيقة أن الحياء لا يعصم الإنسان من مجرد المعصية والمخالفة والإكتفاء بالتحرز عما يتحرز عنه عامة الناس ، ولكنه يعصمه ويمنعه عما هو أدق من المعصية والمخالفة ، وهى الأمور التى قد تمس دينه أو مروءته أو كرامته الإسلامية ، ولو لم تكن فيها مخالفة صريحة أو معصية واضحة ، إن الحياء يترفع بصاحبه عن

سفاسف الأمور وتوافهها ، ويدفعه إلى التطلع إلى معالى الأمور وعظائمها ، فهم إذا مروا باللغو مروا كراماً ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، يتجاوزون عن المسيء ، ويصفحون عن الجاهل ، ويدفعون السيئة بالحسنة ، وينصفون المظلوم ، ويردعون الظالم ، ويبذلون من ذات أنفسهم ، من قوتهم وجاههم وكرائم أموالهم ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ،. يلينون للناس ، ويحفضون لهم الجناح ، ولاتلتات السنتهم بكلمة غيبه ولا فحش ، ولا جوارحهم بفعل ختا ولا فاحشة . ينزهون أقوالهم عن البذاءة وأفعالهم عن الدناءة ، ونفوسهم عن الشح والطمع ، والحقد والحسد ،والغل ،الضغينة .

وقد يظن كثير من الناس إن صاحب الحياء يتعرض لطغيان الآخرين وعدوانهم وإنهم يعدون ذلك منه ضعفا وعجزاً ، ولذلك يتصحون أحبابهم بالوقاحة وترك الحياء ، حتى لا يصيبهم الأذى والشرور ، وهو ظن قد يكون له ما يبرره بحسب وقائع الحياة . خاصة عند شيوع الفساد ، وإختلاط القيم ، وظهور الفتن ، ومع ذلك فالحياء حيلة لا ينبغى لمن تحلى بها أن يفرط فيها ، وقد روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الإنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء . (أى يطلب منه التخلى عنه أو التخفيف منه) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه فإن الحياء من الإيمان .

وقد روى مسلم وغيره من عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الحياء خير كله .

إن الخجل يدفع صاحبه
إلى التفريط

والحياء خير فى نفسه ، وهو أيضاً لا يعقب من النتائج إلا خيراً : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحياء لا يأتى إلا بخير ، متفق عليه من عمران بن حصين رضى الله عنه .

وقد يختلط الأمر على بعض الناس فيحسب الخجل نوعاً من الحياء ، ويظنون أن الخجل هو الحياء ، وأن الحياء هو الخجل ، وليس الأمر كذلك .

إن الخجل قد يدفع صاحبه إلى التفريط فى الحقوق ، فى حق الله تعالى ، أو فى حقوق العباد والمخلوقين ، ولهذا يحاول بعض المربين أن يبتعدوا بأبنائهم وتلاميذهم .

الحياء
حلية المؤمن

عن صفة الخجل ، وتفهم نصائحهم على إنها تشمل صفة الحياء ، وبذلك تزول صفة من أجمل صفات الإيمان وهى صفة الحياء ، فى مقابل صفة سيئة هى صفة الخجل .

• ولهذا ينبغى التفريق فى وضوح بين صفة الحياء الكريمة ، وبين صفة الخجل السيئة ، فالحياء هو الذى يجعل صاحبه يتحرز عن إرتكاب ما نهى الله عنه ، وعن إرتكاب ما يمس شرفه ومروءته

وكرامته ، وعن إنتهاك حقوق الآخرين أو المساس بمشاعرهم ، ويدفعه إلى بذل الندى ، وإشاعة المعروف نوعميم الإحسان قولا وعملاً ، وسلوكاً وعلاقة ، إنه يقظة الحس ، وترفع الفكر ، وتقدير الصفات الكريمة والأخلاق الحميدة .

أما التفريط فى الكرامة لو فى حق من حقوق الله ، لو فى حق من حقوق العباد ، مراعاة لأحد من الخلق ، أو مجاملة لهم ، أو خوفاً من ذى منصب أو جاه أو سلطان ، أو طمعاً فى ثروة أو مركز أو عمل من الأعمال ، فهذا بعيد كل البعد عن الحياء ، بعضه خجل وبعضه سوء تقدير ، وبعضه عجز وبعضه طمع .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعز الناس أشد حياء من العذراء فى خدرها ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه إنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياء ، وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه ... وكان عليه الصلاة والسلام إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا ، بل يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ، يكفى عنه ، ولا يسمى فاعله .

إ ن عقيدة التوحيد تجعل المؤمن يتحلى بكبرياء

فلا ينبغى للمؤمن أن يستحى من الحق ، وإنما يدفعه حياؤه لذكر الحق والمحافظة عليه والدفاع عنه ، وفى الوقت نفسه يمنعه حياؤه من البذاء والفحش وسوء الفعل أو الكلام ، فالمؤمن لا يكون فاحشاً ولا ستفحشاً ولا يذيناً .

وعقيدة التوحيد التى تحلى المؤمن بحيلة الحياء ، تجعل أعلى رتبة فى الحياء هى الحياء من الله تبارك وتعالى ، روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إستحيوا من الله حق الحياء ، قلنا : إنا نستحى من الله يارسول الله والحمد لله ، فقال : ليس ذلك ، ولكن الإستحياء من الله حق الحياء : إن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وأثر الآخرة على الأولى ، فمن فعل ذلك فقد إستحياء من الله حق الحياء .

ففى هذا الحديث الشريف جماع الحياء كله ، جمعه الحياء من الله تعالى ، ومن لاحياء عنده من الله . فكيف يستحى من الناس ، ومن لم يستح من الله ، ثم زعم أنه يستحى من الناس فقد خلط بين الحياء والخجل ، ويسمى خجله من الناس حياء ، فإذا إستحى من الله كفاه ذلك عن الحياء من النفس وعن الحياء من الناس .

ومن حرم من صفة الحياء ، حرم من الخير ، وأصبح عرضة للشر والفتنة ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى وغيره عن ابن مسعود رضى الله عنه : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فإصنع ما شئت .

فالحياء هو الذى يحجز المؤمن عما لا يليق به وبإيمانه ، فيظل نقياً بهياً ناصع البياض فى حلية الإيمان ، وإمتناع الحياء يجعله يرتكب ما يرتكب دون أن يشعر بالحرج أو الضيق النفسى ، فيزول

بهاؤه وتزول حليته ، وقد يخشى على بنيانه الإيمانى نفسه يقول أحد الشعراء .

يعيش المرء ما إستحيا بخير

ويبقى العود ما بقى الحياء

فلا والله ما فى العيش خير

ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

إذا لم تخش عاقبة الليالى

ولم تستح فاصنع ما تشاء

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

رقم الإيداع ٣١٤٣ / ٩١

مطابع لوتس بالقاهرة ت : ٩٣٦٣ - ٩

هذا الكتاب

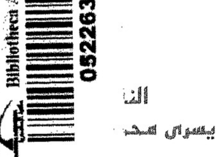
تم طبعه أثناء حرب الخليج ورغم ارتفاع سعر الورق. فقد تقرر أن يكون ثمنه جنيهان فقط . . حرصا منا على توصيل الكلمة للقارئ دون مشقة وعناء . .

هذا الكتاب

لاغنى عنه لكل مسلم . .

لاغنى عنه فى المكتبة الاسلامية . . تتوارثه الأجيال جيل بعد جيل

والله يوفقنا الى ما فيه خير الإسلام و



الن

يسرى محـ

السعر ٢ جنيه